فقه النفوس وتزكيتها

في ضوء القرآن والسنة

- كيف نحقق التقوى في نفوسنا
- احذر خصائص نفوس المنافقين
- كيف تمتلك نفساً مستقيماً
- أحوال النفوس عند المعصية وعند التوبة
- تربية النفوس ومحاسبة النفس

جمال ماضي

دار المدائن

دار الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء عام
إلى الشباب المسلم

أيها الشباب المسلم :

إن للأمة فى عنقك ديْناً ، فأد هذا الدين ، من دمك الطاهر ووقتك الغالى ، وروحك الكريمة ، ولتكن حياتك مليئة بالعمل ، محفوفة بالنضال ، مزدحمة بجلائل الأعمال ، وليكن شعارنا دائماً :

بنيت بعزتى صرح المعالى
وسوف أسير فى ركب الرجال
أقدم فى سبيل الخلد نفسى
وأرخص ما حييت دمى ومالى

فقه النفوس وتزكيتها

في ضوء القرآن والسنة

الطبعـــة الأولى
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م

طبعة مزيدة ومنقحة

رقم الإيداع القانوني
٤٦٦٦ - ٨٣

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع
٢ شارع منشا - محرم بك - الأسكندرية
تليفون : ٣٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٠١٦٩٥

إهداء خاص

إلى ... صلاح جديد

يا صلاح الدين ...

يا من تعد لقدرك

انهض فقد حان وقتك ...

أما تسمع صوت المقدسات ينادى الأمة الإسلامية :

هـاتـى صـــــلاح الـديـن

ثـانـيـــــة فـــــيـنـا

وجـــــددى حـطـيـن

أو شـــبـــه حـطـيـنـا

هيأ الله لنا ولك الخير، ووفقنا إلى السداد.



مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده لا شريك له ...

والصلاة و السلام على رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد .

فى ليلة يفرق فيها كل أمر حكيم ، اتصلت السماء بالأرض فنزل جبريل الأمين على قلب محمد ﷺ ، بالكتاب الربانى و القرآن العظيم ، والهدى القويم .

وظل على مر أعوام احتفال سنوى يقام بأمر من رب العزة تبارك وتعالى فى هذه الليلة التى هى خير من ألف شهر .

وذلك لقيمة القرآن الكريم ، فما أحوجنا أن ننظر فى القرآن وأن نتعرف على ما به من كنوز ... ففيه أنوار ربانية لا يعلمها إلا من تذوقها .

وقد حوى القرآن حياة حافلة بالحركة و الحيوية لأنواع عديدة من النفوس البشرية ، عرضها الله عز وجل بإعجاز القرآن الباهر ، وبعلمه بأغوار النفس البشرية . ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾.

ثم جاءت السنة تفسر و السيرة توضح فإذا بنفوس الناس عارية أمام هذه الحقائق وهذه محاولة متواضعة نسأل الله فيها العون و التوفيق و السداد.

وهى عرض لقليل من كثير الكنوز التى فى القرآن و السنة ، لبعض من النفوس البشرية ، ولا أقول قد استوفيت الموضوع من جميع جوانبه ولكن حسبى أن طرقت الموضوع من أحداث السيرة الناطقة .

وقد استفدت من كثير ممن تعرضوا لشرح هذا الجانب من أجلاء العلماء وفضلاء المجاهدين جزاهم الله خير الجزاء.

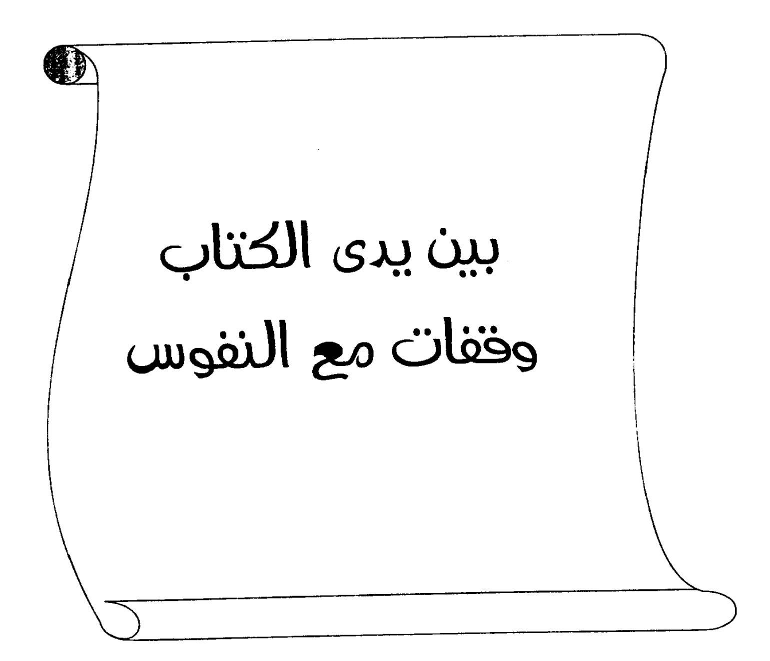
فقمت بجمع وترتيب هذه الأنواع مضيفاً إليها أمثلة حية من القرآن و السنة بروح السير إلى الله و الاهتداء إلى طريقة.

والله أسأل أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه ، وأن ينفع به المسلمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ،،،

جمال ماضى

أولاً : فقه النفوس



وقفات مع النفوس

الوقفة الأولى :

لهذا القرآن كنوز وأسـرار ، فمن الفائز بها ؟ ومن يستحقها ؟ ولمن يمنحها القرآن ؟.

وكـأني بالإجـابة تقـول : إن هذا القـرآن لا يعطى كنوزه ولا أسـراره إلا لمن يستحقها ...

* وهم أصـحاب العـقـول والأفـهـام الذين ينظرون إلى القـرآن وإلى آياته، فيحولونها إلى تحقيق وتطبيق وتنفيذ، فهم الآيات المتحركة ، ودلائل القدرة الحية ، و القرآن الذى يعيش بين الناس وفى الناس .

* وهـم الـذيـن ينظـرون إلى النمـاذج البـشـرية الواقعـيـة التى بينهـا رب العـزة ، فيستلهـمون منهـا الدروس ، ويعيشون بها سلوكاً نابضاً بالحياة و الحركة و الحيوية.

* وهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، و الاتباع أخص صور العمل ، وعند التطبيق يفيض عليهم القرآن بأنواره وبهائه وسحره .

الوقفة الثانية :

هذه النفوس سواء كانت لأفراد أو جماعات هى نماذج متحركة واضحة مرتبطة أشد الارتباط بواقع أنفسنا ومجتمعنا ، بل وكل مجتمع يجيد الأخذ من القرآن و السنة و التعرف على كنور الإسلام.

* فهى نماذج لنفوس أفراد أحاط بها حظ الشهوة ومتاع الدنيا وزينتها، وحاصرها الشيطان و الهوى فخرجت من براثن هذا الحصار الرهيب ، إما صالحة قد اهتدت بفهمها السليم إلى الحق ، ورزقها الله اتباعه ، وإما عكس ذلك .

* ومن ثم فالناظر لها و الدارس لأحوالها يخرج بالدرس ليقتدى بالصالح منها فيتبعه، ويطبقه، وينقلب إلى نفسه يصلحها ، ويرى كذلك آية الله فى معالجة المعوج من هذه النفوس الملتوية و الضعيفة.

* وآية الله واضحة وهو يعالج التواء هذه النفوس بالدواء الذى يقضى تماماً على المرض ، ولم لا ؟... وهو سبحانه الذى خلقها ويعلم سرها و نجواها وقد ألهمها فجورها وتقواها.. وهو الذى يعلم ما تخفيه وما تبطنه .. وهو أقرب إليها من حبل

الوريد .

﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾

ولذا فليتعمق ايماننا بدواء الله الذى يجتث العلة من جذورها ، ويخفى الداء فلا يكون له أثر ، ومن ثم يقوى أملنا فى الله وثقتنا به تعالى وثقتنا فى أنفسنا لحظات الضعف .

الوقفة الثالثة :

ثم إن هذه النفوس قد تعددت أنواعها فى ضوء القرآن و السنة فنرى المهتدية والمطمئنة و المؤمنة و الراشدة و العاقلة و الواعية و السخية و المناضلة و المجاهدة ، والأخرى الملتوية و المنحرفة و الفاسدة و المنافقة و الكافرة و المتخاذلة و الشحيحة.

* كل هذه الأنواع لتكون بمثابة مرآة للناظر فيرى أى نوع من هذه الأنواع يجد نفسه ؟ وهذه نعمة بل آية من آيات الله ، لنتعرف على أنفسنا ونتقى المعصية ونتمكن من الطاعة ، ونحظى بالطمأنينة و السكن .

* وكذلك تتيح للناظر لها الإجابة الأبدية الخالدة على السؤال المتكرر : كيف يكون الانتصار ؟.

فهذا رسول الله ﷺ يقود موكب الحق وفئة الصلاح المؤمنة الصادقة إلى أن يأتيه التمكين و الانتصار ، ولكن بعد إحدى وعشرين عاماً من الإيذاء و التعذيب و النفى و التشريد و الهجرة و الجهاد ، ثلاثة عشر عاماً فى مكة ، وقد أحاطت به الأخطار وأحاط بها، وثمانية أعوام فى المدينة بين مشاق وصعاب حتى كان يوم الفتح يوم أن دخل الناس فى دين الله أفواجاً ... فبعد أن شق الرسول ﷺ بموكب الحق الصخور و الأشواك بصلابة وثبات وايمان ، كان الدرس « **الثقة الكاملة بأن العاقبة للمتقين** » .

و النصر و التمكين رهين بوجود التقوى التى ينهار أمامها الباطل ، ففى جنبات مكة حمل الهواء مسروراً صوت النبى ﷺ وهو يردد: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ الإسراء / ٨١ .

وثمة انتصار آخر حينما تنكشف حقائق النفوس أمام هذه المرآة التى حوت أنواع النفوس كما عرضها الله ... ذلك الانتصار على الشيطان وركبه وحزبه ، فمن خلال هذه النماذج ترى كيف خرجت من معركتها مع الشيطان والهوى قوية صلبة ، فهيهات لكيده أن يتمكن منهم ، فليس له عليهم من سلطان.

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ... ﴾ الحجر / ٤٢ .

فانقلبوا للإصلاح سواء كان فى واقع أنفسهم أو فى واقع عصرهم ، فتركوا الآثار

الصالحة فى أى مكان حلوا فيه تتحدث عنهم وتنطق بانتصاراتهم.

وهكذا إلى يوم الدين تتكرر النماذج ، و التمكين مرهون بالتقوى ، تلك الحقيقة الأبدية ، تأمل لهذه النماذج:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ إبراهيم ١٣:١٤ .

نعم ذلك : التمكين و الانتصار .. للمتقين ، الذين يراقبون ربهم ، ويخشونه بالغيب ، ويطهرون أنفسهم من الآثام و الذنوب ، فهم أهل الآخرة ... الفائزون.

الوقفة الرابعة :

* وربما يسأل سائل كريم حينما عرض الله سبحانه وتعالى مثل النفوس السيئة والملتوية و الفاسدة عرضها بأبدية السوء و الانحراف فيها ، فلماذا لم يهدها إلى طريق الحق ؟.

وحينما نتأمل حقيقة هذه النفوس نفجع بهذه الحقيقة الأبدية وهذا إنذار خطير للمتأمل .. فمهما تطاول عليها العمر ، وطال الزمن هى كما هى لم تختلف.

هذا فرعون وذاك قارون وهامان وأبو جهل وأمية زعماء الكفر وابن سلول وغيرها كثير ... مثل ناطق لهذه الحقيقة.

وإنما كان ذلك لمركبات النقص فى داخل هذه النفوس ، فهناك حد منه يبدأ الإصلاح و بالتالى التعرض لقدر الله فى الهداية ، هم لم يصلوا إليه من واقع كفرهم الشديد وإعراضهم الأشد...

*** ويسأل آخر :**

كيف ذلك و القرآن يهدى للتى هى أحسن ؟

وتتحدد الإجابة بهذا التساؤل : القرآن يهدى من ؟

- إن القرآن يهدى من اهتدى به ونفذه وحقق تطبيقه.
- إن القرآن يهدى من عايشه واستمد العون من الله .
- إن القرآن يهدى من ارتبط به مصيراً وقدراً ورأى أن صلاح دينه ودنياه فيه.
- إن القرآن يهدى من استمع دائماً إلى الله، واستشاره فى كل صغيرة و كبيرة ، ومن هنا يظفر بالدواء النافع و الشفاء و الرحمة ، يقول تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ... ﴾ الإسراء/ ٨٢ .

•• وأخيراً :

هيا ـ أيها القارىء الكريم ـ فى جولة مع النفوس فى ضوء القرآن و السنة ، عسانا بعد هذه الوقفات أن نبدأ الجولة ، ومعنا الزاد و المعالم و الومضات التى تنير الطريق ، فنسير على بينة ووضوح.

نسأل الله تعالى أن يهبنا نفوساً طيبة مطمئنة ، تعيش مع الوحى .. اللهم اعط نفوسنا تقواها.. زكها أنت خير من زكاها .. أنت وليها ومولاها..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ...



المتقون

هذه النفوس العاقلة المتفتحة ، وصفها الله فى كتابه قائلاً :

﴿ الٓمٓ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ
الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ
وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ
وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ
أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة (١-٥) .

فبهذا التحدى الظاهر لأهل العربية أن يأتوا بمثله كان هذا الكتاب الربانى العظيم الشأن ، فهو حق لا لبس فيه ولا باطل ولا غموض ، ثم أنه صدق لا كذب فيه ، فهو كالغيث من السماء و النفوس هى الأرض التى تستقبل الغيث ، فتنبت وتخرج ثمارها الطيبة ، تلكم النفوس الصالحة التقية ، فما هى ؟

* هى نفوس تتقبل الحق وتتشرب بالهداية وتؤمن بكل ما جاء فى القرآن فهى قرآنية، صنعها الله على عينه ، سماها المتقين ، وبين صفاتهم الخمس ثم أصدر أمراً إلهياً وحكماً ربانياً بأنهم : ﴿ ... هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

فيا بشراه من نفوس ويا بشرى أصحابها بحكم الله فيهم ، وما ينتظرهم يوم الدين .

* وهذه صفاتهم الخمس ما هى إلا أركان يتكون فى النهاية منها هيكل متكامل لهذه النفوس التقية النقية الطاهرة.

تحيط بها الصعاب وتكافح الهوى و الشيطان و الدنيا وزينتها وتخرج منتصرة بالحق، يقول تعالى:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) ﴾ النازعات (٤٠ - ٤١) .

وكأنى بعمر بن الخطاب أمير المؤمنين وهو يسأل أبى بن كعب رضي الله عنه قائلاً : ما التقوى؟

فأجاب أبى : أما سلكت طريقاً ذا شوك؟

قال عمر: بلى

قال أبى : فما عملت؟

قال عمر : شمرت ، واجتهدت.

قال أبى : فذلك التقوى.

فهذا طريق الايمان تثبت فى جنباته الذنوب و المعاصى و الشهوات كما تثبت الأشواك فى الطريق وكما ترفع ثوبك تتقى الأشواك تجاهد نفسك اتقاء الذنوب و الآثام . فواشوقاه إلى صفاتهم لنكون منهم.

ويمكننا أن نجمل هذا النوع فى الآيات الكريمة فى ثلاث صفات:

أولاً: البصيرة

فى الايمان بالغيب و اليقين بالآخرة

ثانياً: الطاعة

فى إقامة الصلاة و الجود.

ثالثاً: السماحة

فى الايمان بالقرآن وجميع الرسالات وذلك بالخلق الحسن و الحب الصادق.

أولاً: البصيرة

و البصيرة تعنى الايمان العميق و التسليم للوحى ، و الانقياد للحق ، وبها يتميز أهل التقوى عن غيرهم ، فهم ينتقلون عن دنيا الناس و يعيشون فى دار غير الدار ، ايماناً بالغيب وخشية لربهم، ويقيناً بالآخرة.

١- الإيمان بالغيب

* و الإيمان بالغيب أن تؤمن بالله سبحانه فلا يتأثر ايمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه ووصفه به نبيه ﷺ ، فترى الله فى عليائه بصفاته وهو سبحانه يصرف الكون فى دقة وحكمة ولا تقف بالبصر المحدود.. ترى الله فى كل شئ تراه فى الليل إذا يغشى ، وفى النهار وفى الشمس و القمر و الفجر ، تراه فى أحداث الزمن ، تراه فى السماء المرفوعة والأرض المبسوطة ، ﴿ ... فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ المؤمنون / ١٤ .

ويقول الإمام ابن القيم فى هذا المعنى :

« وهو كما وصف نفسه فى كتابه وفوق ما يصفه به خلقه ، حى لا يموت ، قيوم لا ينام ، عليم لا يخفى عليه مثقال ذرة فى السموات و الأرض ، بصير يرى دبيب النملة

السوداء ، على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ، سميع يسمع ضجيج الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفاوت الحاجات ، تمت كلماته صدقاً و عدلاً ، وجلت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبهاً ومثلاً ، وتعالت ذاته أن تشبه شيئاً من الذوات أصلاً ، له الخلق و الأمر وله النعمة و الفضل ، وله الملك و الحمد ، أول ليس قبله شىء ، آخر ليس بعده شئ ظاهر ليس فوقه شئ ، باطن ليس دونه شئ .

كل شىء من مخلوقاته دال عليه ، ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه ، خلق الخلق لقيام توحيده وعبادته، وأسبغ عليهم نعمه ليترسلوا بشكرها إلى زيادة كرامته ، وضمن الكتاب الذى كتبه : أن رحمته تغلب غضبه ...» (مدارج السالكين الجزء الأول ص ١٢٤) .

وهذا الايمان بالغيب يعنى الايمان بالقول و العمل ، و الاعتقاد حتى يصل صاحبه إلى تمام الخشية من ربه ، و الخشية أخص من الخوف ، فالله عز وجل جعلها للعلماء به فى كتابه فقال : ﴿ ... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... ﴾ (فاطر : ٢٨) .

وذلك لأنه خوف مقرون بمعرفة وعلم وبصيرة ، يقول ﷺ : « إنى أتقاكم لله ، وأشدكم له خشية » .

وجملة الخشية كما قال شيخ لإسلام (ابن تيمية) : ما حجزك عن محارم الله (المدارج الجزء الأول ص ٥١٤) .

وياله من أجر كبير ومغفرة لهؤلاء الذين يؤمنون بالغيب ويحققون الخشية ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (سورة الملك آية ١٢) .

* والإيمان بالغيب أن تؤمن برسول الله ﷺ وأنت لم تره ، وتصدقه وأنت لم تشاهده ، وتؤمن بما قال وأنت لم تسمعه منه ﷺ ، وتقتدى بمواقفه ولم تشاهدها ، وتتبعه حباً ولم تسمعه، يروى لنا أبو عبيدة بن الجراح :

« تغدينا مع رسول الله يوماً فسألته : يا رسول الله هل أحد خير منا ؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك . قال : نعم قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى ».

أولئك الذين يصدقونه ويتبعونه ويؤمنون به حباً وصدقاً واقتداءً وهم لم يروه .

أولئك خير من جيل أسلم مع النبى ﷺ وجاهد معه ، أى شرف لهم وأى منزلة هم عليها ، يؤمنون برسول الله ﷺ بالغيب ولم يروه...

وبالإيمان بالله وبرسوله ﷺ بالغيب تتحقق بوادر التقوى فى النفس ، فيعيش صاحبها مع الأمر عاملاً ومع النهى هارباً.

يقول ﷺ : « لن يبلغ أحدكم أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس ».

ولن يأتى ذلك إلا بالإيمان بالغيب ، خشية لله و اقتداء برسوله ﷺ.

٢ - اليقين بالآخرة

يقيننا بالآخرة يتقلب بين مراتب ثلاث..

الأولى : علم اليقين ويأتى عن الخبر.

والثانية : عين اليقين حين تتجلى حقيقة المخبر عنه للقلب حتى يصير العلم به عين اليقين.

والثالثة: حق اليقين وذلك حين يباشره ويلابسه فعلمنا بالآخرة وبالجنة و النار الآن علم يقين ، فإذا أزلفت الجنة للمتقين فى الموقف ، وبرزت الجحيم للغاوين ، وشاهدوها عياناً ، كان ذلك عين اليقين ، يقول تعالى:﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ (التكاثر ٦-٧) ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار فذلك حق اليقين .

وهذا اليقين بالآخرة هو المحرك نحو الجهاد و العمل ، فأول من استشهد فى سبيل الله فى بدر دفعه اليقين بالآخرة إلى حسن صنيع وجميل موقف، لن ينساه التاريخ إلى يوم الدين ، فقد خرج النبى ﷺ يهيئ أصحابه للقتال ،وألقى عليهم قبيل المعركة كلمة قال فيها : « و الذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل صابراً محتسباً، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة ».

وهنا ظهر نموذج من اليقين بالآخرة فقد كان عمير بن الحمام واقفاً فى الصف ، وفى يده تمرات يريد أكلهن ، ولكنه بعد أن سمع كلمة الرسول ﷺ يقذف بهذه التمرات قائلاً :« بخ بخ ، فما بينى وبين الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ». ثم أخذ سيفه وغاص فى المشركين يقاتل طالباً الجنة حتى قُتل.

وهكذا بالإيمان بالله ورسوله و اليقين بالآخرة ، يتأتى للنفس البصيرة ، فترى غير ما يرى الناس ، ويعيش فيما لا يعيش الناس ، ويفتح أمامها طريق التقوى ، وتلكم صفات النفوس التقية.

ومع الصفة الثانية وهى الطاعة.

ثانياً : الطاعة :

وفى ضوء الآيات نجد أن الطاعة عند هذه النفوس قد تجلت فى إقامتهم للصلاة وتحقيقهم للجود وذلك بالانفاق فى سبيل الله .

١- إقامة الصلاة

وإقامتها تعنى أداؤها فى أوقاتها بتمام ركوها وسجودها وسننها وفرائضها ، وبكامل الخشوع و الوجل وحضور القلب ، وبذلك تتجه هذه النفوس لله وحده، فلا باب إلى الله إلا الصلاة ، فيتصلون بربهم على مدار الليل و النهار.

يقول صاحب الظلال (الجزء الأول ص ٤٠) : « و القلب الذى يسجد لله حقاً ويتصل به على مدار الليل و النهار ، يستشعر أنه موصول السبب بواجب الوجود، ويجد لحياته غاية أعلى من أن تستغرق فى الأرض وحاجات الأرض ، ويحس أنه أقوى من المخاليق لأنه موصول بخالق المخاليق».

* هذه النفوس ملء صلاتها الخشوع قال ابن عباس رضى الله عنهما « ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها» ، وذلك لأن الصلاة هى هدية الرب إلينا وهديتنا إلى الرب، يقول الإمام ابن القيم : « والله طيب لا يقبل إلا طيباً وليس من العمل الطيب: صلاة لا روح فيها ».(المدراج ج ١ ص ٥٢٧) وروى أن أحد العباد كان إذا دخل بيته ، صمت وسكت من فى البيت ، من هيبته ، فإذا دخل فى الصلاة تحدثوا وتكلموا ، لعلمهم أنه فى عالم آخر لحال خشوعه.

* وكذلك يكون الاستعداد للصلاة بالخوف وحضور القلب ، فقد كان على بن الحسن رضى الله عنهما إذا توضأ اصفر لونه فقيل له : ما هذا الذى يعتادك عند الوضوء؟

فقال:

« أتدرون بين يدى من أقوم »

وحين الصلاة يكون مقيمها بين خوف ورجاء يخشى من تقصيره بحرمان الأجر ويرجو لصلاته الثواب و الأجر.

** ومن ثم يكون فى دنيا غير دنيا الناس ، فإذا سمع النداء تذكر نداء القيامة، وإذا ستر العورة يتذكر عورات باطنه وستر الله لها، وعند القبلة يتذكر أن صرف الوجه إلى الله يجلب صرف القلب إليه، وعند التكبير لا يكذب اللسان فلا يوجد فى قلبه شئ أكبر من الله ثم يستشعر حين السجود بأن الفرع لابد أن يعود إلى أصله وهو فرع وأصله التراب، فمسه الأرض يتذكر الموت وأنه لا محالة إلى تراب ، فيصلى صلاة مودع راحل ، فيها الخشوع و الطمأنينة و الوجل و الخشية.

وقد قرأ أحدهم فى صلاته: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴾ المدثر / ٨ فخر ميتاً.

وبهذه الصلاة الخاشعة كان يختار ولاة الأمور وقادة المسلمين ، ولم يعرف

الإسلام قائداً لا يقيم الصلاة.

فقد كان عمر يختار القادة لصلاتهم فالنعمان بن مقرن قائد معركة نهاوند المشهورة، لم يكن عمر يعرفه حين دخل المسجد رأى رجلاً يصلى صلاة خاشعة، فامتلأ به إعجاباً فسأل عمر : من هذا ؟ فقيل: هذا النعمان بن مقرن.

فقال : على به ... فلما جاء

فقال له عمر: قد انتدبتك لأمر عظيم

فقال الرجل : يا أمير المؤمنين إن كنت تريدنى لجمع الصدقات فإنى لا أصلح لذلك ، وإن كنت تريدنى للجهاد و الاستشهاد فى سبيل الله فإنى أصلح لذلك .

فقال عمر: بل أردتك للاستشهاد.

ثم ولاه إمارة الجيش ... فماذا صنع؟

لقد كانت أول أعماله أن طلب من الجند أن يتوضأوا ... ليصلوا قبل المعركة وبعد الصلاة أمرهم برفع الأيدى قائلاً لهم : أيها الناس إنى داع فأمنوا.

فبماذا دعا النعمان ؟ أدعا بالنصر فى المعركة حتى لا يحرج موقفاً أمام عمر؟

كلا... ما كان لنفس تقيم الصلاة متصلة بربها أن تراعى المخلوق وهى مع الخالق ، بل قال : « اللهم ارزق النعمان استشهاداً فى سبيلك يفتح به على المسلمين ».

والتحم الجيشان ويمر عليه : معقل بن يسار ، ويسأله النعمان وهو ينزف الدماء ويحتضر :

هل تم النصر؟ قال معقل : نعم فقال : الحمد لله ... ثم فاضت روحه .

ومن ثم كانت آخر كلمات الرسول ﷺ فى الدنيا قبل رحيله : « الصلاة...الصلاة ».

٢ - الجود:

وليس الجود بالمال فحسب بل الجود بالوقت فى سبيل الله مواساة وإغاثة ودعوة، والجود فى سبيل الله نشراً لدين الله ، و الجود بالقرآن فى سبيل الله تعليماً للناس ، وهكذا تتقلب هذه النفوس مع الجود إلى أن تجود بأغلى ما تملك وهى نفوسها التى بين جنبيها، وبالأرواح و المهج تقدمها إلى خالقها استشهاداً فى سبيله ، وتتذكر دائماً أن رسول الله ﷺ كان أجود من الريح المرسلة وكان أجود الناس.

فهذه النفوس تنفق من مال الله الذى رزقها ، ومن هذا الاعتراف بأن الرازق هو الله، وأن المال مال الله ، تنطلق أبواب البر و الجود .

ففى ضوء الآية يقول تعالى : ﴿ ... وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ البقرة / ٣ .

فقدم الجار و المجرور لتأكيده هذا المعنى وجاءت ﴿ ما ﴾ دليل رحمة الله بهم فهو يطالبهم ببعض ما رزقهم وبجزء مما رزقهم ، وذلك ليتحقق اعترافهم بجميل عطاء ربهم .

فيالها من بلاهة من هؤلاء المساكين الذين إذا رزقهم الله شيئاً من ملكه ظنوا أن لهم جزءاً فى ملك الله... أنسى هؤلاء أن الحياة ما هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع ، و الناجى من حقق عبوديته لله، و الخاسر من شرد عن طريق الطاعة.

ثالثاً: السماحة

ألا يليق بموكب المتقين، وتلكم النفوس القائدة أن تنعم بهذه الصفة الحميدة ، حيث لا تعصب ذميم، بل اطمئنان إلى رعاية الله للبشرية فى توالى الرسل والرسالات بدين واحد، و لذلك فإنهم يغضبون عندما ينال من نبى كما يغضبون عندما ينال من محمد ﷺ ، يؤمنون بجميع الرسل ، ويؤمنون بجميع الأديان ، يقول ﷺ : « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كرجل بنى داراً وأكملها وأجملها إلا موضع بنة، فجعل الناس يطوفون بها ويقولون : ما أجملها وما أحسنها ، هلا وضع اللبنة... فأنا اللبنة وأنا خاتم الأنبياء» (رواه البخارى) .

وبعد

وبعد هذه الصفات للنفوس التقية يطيب لنا أن نسمع ماذا قال عنهم صاحب الظلال

يقول سيد قطب:

« وهذه كانت صورة الجماعة المسلمة التى قامت فى المدينة يوم ذاك، مؤلفة من السابقين الأولين من المهاجرين و الأنصار ، ومن ثم صنع الله بهذه الجماعة أشياء عظيمة فى الأرض ، وفى حياة البشر جميعاً ...

ومن ثم كان هذا التقرير :

﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ البقرة / ٥ .

«وكذلك اهتدوا وكذلك أفلحوا ، والطريق للهدى و الفلاح هو هذا الطريق المرسوم ». (الظلال ج ١ ص ٤١) .

نعم هذه النفوس مستمرة فى الحياة وتتكرر فى عصور مختلفة وأماكن مختلفة كذلك ، وليست بدعاً فى أن تتحقق، وما تحققت على عهد رسول الله ﷺ وانتهت ،

بل هي مستمرة مكرورة وقد تكون بيننا اليوم بواقعها وموكبها ، وسر ذلك من الآيات أن الله تعالى استعمل الأفعال المضارعة :

﴿ يؤمنون - يقيمون - ينفقون - يوقنون ﴾

وذلك لأن الفعل المضارع يفيد الاستمرار و التكرار ، فهذا الركب الطيب من النفوس التقية ركب متجدد مستمر كلما مضى ركب تبعه ركب، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فطوبى لمن لحق بهم ، ويا بشراه من سار على دربهم ، واهتدى بفعلهم ، واتصف بصفاتهم ، وقال لنفسه:

يا نفس ويحك طال ما
أبصرت موعظة وما
نفعتك فاخشى وانتهى
وعليك بالتقوى كما
فعل الأناس الصالحون
وبادرى فلربما
سلم المبادر واحذرى
يا نفس من سوف فما
خدع الشقى بمثلها



الكافرون

هى نفوس كافرة إلى يوم الدين، وفى كل أرض ، وفى كل حين ـ على النقيض تماماً من النفوس التقية ــ يقودها الباطل تتعصب له ، وذلك لأنها محدودة الأفق قد تبلد حسها وتجمدت مشاعرها... موجودة فى كل عصر ، فى كل جيل ، ومستمرة على مر الأعوام ، إن دعاها المصلحون إلى الدين قالوا :

﴿ ... وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف:٢٢) .. شتان بين وصفهم لأنفسهم بأنهم مهتدون وبين وصف الله للمتقين بأنهم ﴿ على هدى من ربهم ﴾ ... يقول رب العزة عنهم:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٦) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) ﴾ (البقرة ٦ : ٧) .

فالنوافذ جميعهاأمامهم مغلقة لا هدى من الله ، ولا وشائج تربطهم بخالق الوجود، و بالغيب و الحاضر (الظلال ص ٢٤) ، بل هى مقطوعة كلها ، فقد ختم الله عليها ، فهيهات للحقائق أن تصل إليها، وهيهات لصدى الإيمان أن يصل إليها ، فهى نفوس مظلمة صماء غليظة متحجرة القلب ميتة الوجدان

فهل يمكنها بعد ذلك كله التدبر؟.

أنظر إلى كلمة الله ﴿خَتَمَ ﴾ وما فيها من إغلاق وجمود للقلب و السمع.

وإلى كلمة الله ﴿ غِشَاوَةٌ ﴾ وما فيها من ظلمة ووحشة وطمس.

فالآية تصور صورة صلدة . مظلمة جامدة لهذا النوع:

وجدان أصم لا يلبى نداء الحق.

عقول جامدة لا تتفتح لكلمة الهدى.

ولذلك كانت النهاية الطبيعية لكفرهم :

﴿ ... وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ جزاء تعصبهم وعنادهم.

* بدأ الله الآية مؤكداً على كفر هؤلاء ، وأنهم لا يؤمنون بل يتساوى عندهم الإنذار أو عدم الإنذار.

﴿ إنَّ الَّذين كفرُوا سواءٌ عليهِم أأنذرتهُم أم لم تُنذرهُم لا يُؤمنُون ﴾.

* ويسأل سائل لماذا يؤكد الله على ذلك ؟.. أليس أمامهم بصيص أمل للهداية؟.

يعلل الله سبحانه وتعالى كفرهم بقوله :﴿ ختمَ اللهُ ﴾ وهى استحالة أن يتحولوا إلى مؤمنين وتتغير أحوالهم ؟ وهاك أمثلة:

فرعون

* هذا فرعون .. علا ما علا فى الأرض ، وليست القضية نفس فرعون فحسب بل هى كل فرعون فى أى زمان ومكان.

* لا رأى إلا للمستبد ولا حكم إلا للهوى ، وويل لمن تحدثه نفسه أن يرى رأياً آخر.

.. ذلك هو منطق الفراعنة ولعل منطق كل فرعون ـ بل مذهب فى الغطرسة و العتو يتمثل فى هذه الجملة القصيرة التى أوردها القرآن على لسانه:

﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾

إنه يجرد شعبه من كل موهبة أو قدرة ... يقوده برأيه ويحكمه بمنطقه ويسوده بفكره ، فهو كل شئ و الناس من حوله لا شئ ! .. فمن هو ؟ أليس بشراً ؟ فلماذا يمتهن إرادة من حوله إلى هذا الحد ، إن الاستسلام لهذه القوى الشريرة هو الذى يسمح لها أن تطغى ، ولو وجدت كابحاً من حماة الحق ما فعلت فعلتها ، فجعلت صعلوكاً كفرعون ينتفخ بالتطرف و الغلو فيقول لمن حوله :

﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾

ويمضى يصوغ لهم بالفردية المتسلطة ، زاعماً أن هذا سبيل الرشاد...

أبو جهل

* وتحيا هذه النفوس من جديد فى أبى جهل بأفعال فرعون ومواقفه إلى أن يقتل فى بدر، وبينما عبد الله بن مسعود يبحث مع الباحثين ، إذ به يجده مجندلاً ، وبه آخر رمق ، فاقترب منه، وبعد أن وضع رجله على عنقه ليجتز رأسه قال له:

هل أخزاك الله ، يا عدو الله؟؟

فقال أبو جهل : وبما أخزانى ، أأعمد من رجل قتلتموه؟؟ (أى : وهل أعظم من

رجل قتلتموه؟؟)

ثم قال لابن مسعود : أخبرني لمن الدائرة اليوم؟

فقال ابن مسعود : لله ورسوله وللمؤمنين.

فقال أبو جهل : لابن مسعود ـ وكان باركاً على صدره ليجتز رأسه ـ لقد ارتقيت مرتقاً صعباً يا رويعى الغنم ، بلغ محمداً أنى عدوه اللدود..

وبعد أن وضع ابن مسعود رأس الكفر بين يدى رسول الله ﷺ قال ﷺ : الحمد لله الذى أخزاك يا عدو الله، هذا فرعون هذه الأمة.

* وهكذا تمضى الحقيقة الأبدية : ركب الإيمان يمضى على هدى من ربه ، حماة حق لا ترهبهم قوى الأرض، وأولئك هم المفلحون ، نوافذ مفتحة للنور و الصلاح ونفوس طيبة تقية نقية ، يقابل ذلك كله نفوس أغلق الله نوافذها عن النور طواغيت يواجهون الحق ، ولكن الأرض باقية قد حوت ترابهم وشهدت مصارعهم.

وهكذا طائفة مؤمنة وفرعون، فلكل أمة فرعون ، ولكل أمد طائفة حق إلى يوم الدين.

يقول صاحب الظلال:

(النفس التى تكفر بالله فى الأرض تظل تنتكس وترتكس فى كل يوم تعيشه ، حتى تنتهى إلى صورة بشعة مسيخة شنيعة، صورة منكرة مهينة نكيرة، صورة لا يماثلها شئ فى هذا الكون فى بشاعتها ومسخها وشناعتها.

فكل شئ روحه مؤمنة ، وكل شئ يسبح بحمد ربه، وكل شئ فيه هذا الخير، وفيه هذه الوشيجة التى تشده إلى محور الوجود.. ما عدا هذه النفوس الشاردة المغلقة من أواصر الوجود إنها تنتهى إلى جهنم المتغيظة المتلمظة.. الحارقة المهدرة لكل معنى ولكل حق ولكل كرامة ، بعد أن لم يعد لتلك النفوس معنى ولا حق ولا كرامة) .



المنافقون

* وهى النفوس التى تتظاهر بشئ وتبطن غيره ، وهذه النفوس لا هى مهتدية ولا كافرة... فهى تمشى مع شتى المواكب وتلبس شارات الخداع... الدنيا أكبر همها ومبلغ علمها، لها تطلب وعليها توالى وتعادى... تنتفخ أوداجها غضباً للدنيا... وتضحك ملء أشداقها فرحاً بالدنيا... وهى حريصة على شئ واحد ... وهو ألا تضار مصالحها.

* ومن ثم فهى أخطر النفوس على حياة المجتمع ، وذلك لأنها تنتهز الفرصة المناسبة لتعبر عن وجودها ، كالجراثيم الخبيثة لا تهاجم الجسم إلا فى حال ضعفه... وطالما كان هناك مناعة فهى حذرة.

* وهى فى واقعها مغرورة مخدوعة بنفسها، وليس أغبى فى الوجود كله من رجل يعمل ضد نفسه.

يقول صاحب الظلال (الجزء الأول ص ٤٢) :

(لقد كانت هذه صورة واقعة فى المدينة ، ولكننا حين نتجاوز نطاق الزمان والمكان نجدها نموذجاً مكروراً فى أجيال البشرية جميعاً ، نجد هذا النوع من المنافقين من علية الناس الذين لا يجدون فى أنفسهم الشجاعة ليواجهوا الحق بالإيمان الصريح ، أو يجدون فى أنفسهم الجرأة ليواجهوا الحق بالإنكار الصريح).

* لقد كان ظهور هذه النفوس فى المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ من مكة ، فقد كان أمر الشرك واضحاً أما النفاق فيلبس ألبسة خداعة ، لقد كانوا يتظاهرون بالإيمان - يصلون خلف النبى - وهم لا يثقون فى صوم ولا صلاة ، يقول تعالى :﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ (المنافقون :١) .

* ويقسمون الإيمان الغليظة وكلها زور وبهتان، ولطالما كادوا للإسلام ودبروا المؤمرات ، ودخلوا الحروب مع الرسول ﷺ ثم ينسحبون وقت الشدة مكراً وكيداً للإسلام ويتعللون بأعذار ملفقة :

﴿ ... يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ... ﴾

ويرد القرآن : ﴿ ... وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ... ﴾ .

ثم يفضح نواياهم: ﴿ ... إن يُريدُونَ إلاَّ فِرَارًا ... ﴾.

وصف الله هذه النفوس فأفاض فى وصفها وهى مكرورة وموجودة فى كل جيل وكل زمان ومكان .

يقول تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩)
فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ . . .
فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠)
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا :
إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (١٢)
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا :
أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ (١٣)
وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا : آمَنَّا . . .
وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا : إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)
أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦) ﴾ .

فى الآيات بيان لعمل المنافقين ووصف كامل لخصائصهم وعرض لصفاتهم ، يخرج بهذه النفوس من حيز عهد رسول الله ﷺ إلى إطلاقها فى كل جيل وفى كل زمان.

* ففيهم المخادعة ولذلك قذف الله في قلوبهم المرض وتوحى هذه الكلمة بتأصل العلة واستحالة الشفاء ، ﴿ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ تؤكد اليأس من علاجهم وذلك لأنهم لم يأخذوا أنفسهم بالعلاج وإنما أهملوا أسباب الهداية وساروا فى طريق الشيطان، ومن ثم استحقوا عدلاً من الله أن يكون لهم العذاب الأليم ، والمرض إذا وصل إلى القلب كان إنذاراً بالخطورة واستدعى ذلك عزل المريض بعيداً عن واقع الناس، وهذا ما كان يفعله ﷺ مع من أعلمه الله تعالى بأنه من المنافقين.

وهم دائما يعودون إلى شياطينهم:

أى رؤسائهم وقادتهم وفيه دليل على أن لهم قاعدة منظمة وتخطيط محبك وذلك لضرب الإسلام وتدميره ، وحينما نتأمل اللفظ القرآنى ﴿ خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ ﴾ .

أنهم كانوا يجتمعون سراً مع قادتهم الذين هم أيدى الشيطان لأنهم يدبرون

ويكيدون السوء فى الخفاء.

ويروى الإمام ابن كثير : أنه كانت لهم تحركات محكمة ونظام مدروس فيقول : « معنى شياطينهم : سادتهم وكبراؤهم ورؤساؤهم من أحبار يهود ورؤوس المشركين ».

وهكذا بهؤلاء يتكتل الشر ضد حماة الحق يخططون فى الظلام ، ويمارسون عملهم فى الخفاء ، فى نظام دقيق.

* وهم كذلك لا إيمان لهم البتة، وذلك لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى ، آثروا الكفر على الإيمان ، فمع تظاهرهم بالإيمان من قول أو عمل أو فعل كانت قلوبهم قد انغمست فى الكفر بل ورضت به.

خصائص هذه النفوس

١- كاذبون :

تقول ألسنتهم ما ليس فى قلوبهم .. يتظاهرون بالإيمان ويبطنون الكفر .. يدّعون الإيمان بالله ورسوله وهم الكاذبون.. ويقسمون الإيمان على ذلك وهم الفاجرون يقول الله تعالى : ﴿ ... وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴾ .

٢- خداع الرأى :

فقد تصوروا الباطل حقا ، فهم مخدوعون فى رأيهم ، مغرورون فى ذكائهم ، فيظنون أنهم الأذكياء وهم الأغبياء ، يتوهمون أنهم سيخدعون الله و المؤمنين وهم ليسوا كذلك ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ ﴾ فقضيتهم خاسرة وعملهم مبتور ، وذلك لأن الله أعلن أن قضية المؤمنين هى قضيته ، وهم فى حمايته ورعايته وكنفه، فلما كانت المعركة مع الله فقد خسر هنالك المنافقون وضل عملهم..

٣- زعم الإصلاح :

وأى إصلاح لهم ؟ وهم المفسدون المخربون فى الأرض فأفعالهم تقول: نحن نهدم ولا نبنى ، نفسد ولا نزرع ، نخرب ولا نصلح ، وذلك لأن الله قد حجبهم عن نوره فأنى للحقائق أن تظهر لهم ، فقد انقلبت عندهم الأوضاع .

٤- رفض الإيمان:

ويرجع سبب ذلك إلى تكبرهم وغطرستهم التى تعميهم عن الحق ، كما قيل لهم بكل الصدق : آمنوا إيمانا حقا، تبتغون به وجه الله لا عرض الدنيا وزينتها ، قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء . فعندهم الصفوة المختارة من أصحاب رسول الله ﷺ سفهاء ، وحتى لا يلتبس الأمر قال تعالى: ﴿ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ ولكنهم مخدعون بأنفسهم فلم يفرقوا بين السادة و السفهاء ، وكأن القرآن ليؤكد على خطرهم وزيفهم فى مسامع الزمن ، لتعلم البشرية حقيقتهم فهم المفسدون ولكن لا يشعرون ، مفسدون ويجهلون أنهم مفسدون، سفهاء ويجهلون أنهم سفهاء ، فالجهل فى ذاته قبيح فكيف إذا كان مركبا؟.. فهم يجهلون ويجهلون أنهم يجهلون...

٥- العمالة :

وصف قرآنى لهذا النموذج البئيس وهو انتماؤهم إلى قاعدة راسخة فى الضلال والإفك تحرك وتخطط وتقود وتدرب على الشر، فإذا التقوا بالذين آمنوا قالوا : نحن مع مسيرتكم ، وعلى نهجكم، ويرفعون رايات الإيمان وشعارات الصلاح ، وإذا رجعوا إلى قادتهم فى الشر والتآمر قالوا: نحن معكم وإنا لنستهزئ بمحمد وصحبه حين ندعى التبعية لهم .. ويسخرون من الفئة المؤمنة الصالحة .

فهم عملاء للشر ويشهد على ذلك ما كان يربطهم باليهود و المشركين من تحالف قائم على الخفاء و السرية ، وما جمعهم جميعاً الا الحقد الأسود على الإسلام والمسلمين.

٦- مستكبرون :

الصد عن سبيل الله و الاستكبار سمتان متلازمتان فى النفس المنافقة، فهم يفعلون الفعلة ويقولون القولة فإذا عرفوا أنها بلغت رسول الله ﷺ جبنوا وتخاذلوا وراحوا يقسمون الأيمان فيتخذونها جنة .. فإذا قال لهم قائل:

﴿ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ المنافقون / ٥ ... لووا رءوسهم استكباراً ! وهم فى أمن من مواجهته .. وإن كان هذا التصرف غالباً ما يأتى ممن لهم مركز فى قومهم ومقام...ولكنهم فى ذوات أنفسهم أضعف من المواجهة ، فهم يستكبرون ويصدون ويلوون رؤسهم ما داموا فى أمان من المواجهة.. حتى إذا ووجهوا كان الجبن و التخاذل و الأيمان الكاذبة!! .

وهذه أمثلة قرآنية لهذه الصفة:

﴿ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ

السموات والأرض ولكنّ المنافقين لا يفقهون ﴿٧﴾ ﴾ (المنافقون : ٧) .

أليست هذه خطة الحصار و التجويع التى يتواصى بها خصوم الحق فى كل زمان ومكان ... ذلك لأنهم يحسبون أن لقمة العيش هى كل شئ فى الحياة كما هى فى حسهم فيحاربون بها المؤمنين ..ناسين الحقيقة..أن لله خزائن السموات و الأرض .. ضمن الأرزاق للجميع .. وأن الذى يعطى أعداءه لا ينسى أولياءه... فيالها من وسيلة خسيسة لا يلجأ إليها إلا اللؤماء.

نفوس منافقة

وبالتأمل نرى أن حيز هذه النفوس فى القرآن و السنة قد استغرق الكثير من الآيات و المواقف ويفسر لنا ذلك صاحب الظلال قائلاً : « على أن هذه الاطالة توحى بضخامة الدور الذى يمكن أن يقوم به المنافقون فى كل وقت داخل الصف المسلم ، ومدى الحاجة للكشف عن ألاعيبهم ودسهم اللئيم » .

وهذه أمثلة لهذه النفوس التى هى مصدر قلق واضطراب وتعب وإيذاء للجماعة المسلمة ، وكذلك مصدر تعويق لمسيرة الحق...

" عبد الله بن أبى بن سلول " :

* صرخات نتنة ، تلك التى انطلقت من الأفواه ، حينما اقتتلا المسلمان عقب غزوة بنى المصطلق ، هذا يصرخ يا معشر المهاجرين ... وهذا يصرخ يا معشر الأنصار ،، لكنها كانت كفيلة بأن تخرج نتن الباطن حين يغضب ابن أبى بن سلول قائلاً : « أوَ قد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » .

* ويسمع ذلك زيد بن أرقم وكان حدثا صغير السن فيمشى به إلى رسول الله ﷺ وعنده عمر بن الخطاب الذى أشار بقتله ويرفض الرسول ﷺ قائلا : فكيف ياعمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ ويأمر الرسول المسلمين بالسير ليلهم ونهارهم ليشغل الناس عن حديث الأمس .

* وهكذا تتجلى حقيقة ما تحمله هذه النفوس الخبيثة ، فهو يعيش بين المسلمين ، قريبا من رسول الله ﷺ تتجلى الآيات كل يوم أمام ناظريه ، ولكن أنى للإيمان أن يهديه الله اياه لأن الله لم يكتب له هذه النعمة وهذه الرحمة.

* ويسمع ابنه عبد الله رضي الله عنه بما فعل أبوه ويطلب من رسول الله ﷺ إن كان

لابد فاعلا أن يأمره يقتل أبيه.. وهو لابد مطيع ـ ويأتيه برأسه ـ لأنه لا يطيق أن يرى قاتل أبيه يمشي على الأرض ... فيقتله فيقتل مؤمنا بكافر .. فيدخل النار.

والرسول ﷺ يمسح الجرح عن هذه النفوس المؤمنة « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا ».

ويقف الابن لأبيه على مشارف المدينة آخذا سيفه، لا يدع أباه يدخل حتى يأذن رسول الله ﷺ قائلا لأبيه: « والله لا تجوز من ها هنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل» ويأذن الرسول الكريم فيقول لأبيه: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآن...

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فحسب فما يجوز ابن أبى بن سلول من مدخل المدينة وإلا ويتولى كبر أمر خطير في المدينة وهو حادث الإفك المشهور يقول تعالى مخبرا عنه : ﴿ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ النور/ ١١ .

* وهكذا تمضى حقيقة أخرى ... فى بيت واحد ... ومن كيان واحد... ومن صلب واحد... قد يختلف الابن عن أبيه بما يحمل من نفس مؤمنة صالحة .. تمضى الحقيقة لتؤكد أنه لا نجاة لشباب العصر إلا بالإيمان والانطلاق بهذه النفوس المؤمنة فى رحاب البذل والعطاء . وإنى بالإمام الشهيد حسن البنا وهو يؤكد هذه الحقيقة فى حديث له عن بذل النفوس المؤمنة (منبر الجمعة ص : ١٤٣) .

قوله: « وإن الإيمان الذى دفع بهذه النفوس المؤمنة إلى البذل ما زال بحمد الله يحتل نفوس ورثتهم من شباب هذا العصر الذى طغى فيه سيل المادية الجارف ، ومهما ترقب المترقبون انقضاض الكتيبة المؤمنة فهى بحمد الله فى عزة ومنعة وغنى وثروة :

﴿ ... وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ (المنافقون : ٧) .

* فوصل القلب بالله فى السر والعلانية هو ميزان حساسية القلب عن أنس قال : قالوا : يارسول اله إنا نكون عندك على حال فإذا فارقناك كنا على غيره قال : « كيف أنتم وربكم ؟ .

قالوا : الله ربنا فى السر و العلانية.

قال: ليس ذلكم النفاق ».



المستقيمون

وهى : نفوس

- يزيدها المجد رفعة و العز تواضعا.
- إذا ملكت عدلت وإذا قدرت عفت.
- إذا آل إليها أمر الناس راقبت الله فيهم ولم تطلب عرض الحياة الدنيا.
- الخير يفيض من داخلها وذلك لأنه طبيعتها وسجيتها.
- ترى أن ما وهبها الله من مال وسلطان وتمكين فى الأرض إنما هو من الله وإليه.
- هذه المظاهر كلها لا تخدعها عن نفسها ولا تحولها عن الباقيات الصالحات.

ذو القرنين:

ضرب الله فى القرآن المثل فى صورة ملك حكم بالعدل وأفاض الله على يده الخيرات فقد قام بإرساء قواعد الحق، وإقرار العدل ، وتثبيت مشيئة الله فى الأرض.

ويقول تعالى فى سورة الكهف (٨٥-٩٨):

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) ﴾.

وثيقة تاريخية إلى يوم الدين اكتفى الله عز وجل بالإشارة إلى ذكر طرف من أنبائه (منه ذكرا). فقد أمده الله بالمال و القوة و السلطان والمجد وجمع إليه أسباب العظمة فسار فى طريق الحق وكان عادلا فى حكمه... والقوة التى تخلو من العدل لا تنفع ، فكم من حضارات شيدها العدل وانتهت عند الظلم و الجور.

ضرب الله المثل باتساع سلطانه ورحابة ملكه بوصف رحلاته الثلاث تارة إلى المشرق وأخرى إلى المغرب وثالثة إلى ما بين السدين . ومن خلال هذه الرحلات و الأسفار تتجلى صفات النفوس المستقيمة.

أولاً ـ الإيمان والدعوة إليه :

* فحينما وصل إلى مغرب الشمس حيث وجد هناك قوما يعيشون على الفطرة فأوحى إليه الله سبحانه وتعالى: ﴿ ... قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) ﴾.

يقول ابن كثير : « إن الله خيره إن شاء قتل وإن شاء أمن وعفا » .

لكنه مع كل أسباب هذه العظمة التى امتلكها يؤثر العدل فكان منطقه الإيمان الذى تمكن فى قلبه ، فقد دفعه الإيمان بالله إلى العدل،ودفعه الإيمان باليوم الآخر إلى إحقاق الحق فانطلق يقول :

﴿ ... أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ ﴾ .

* ولم تتوقف النفس المستقيمة عند الإيمان ، فحسب بل إنها تنطلق داعية إلى هذا الإيمان الذى تعمق فى نفسها وذلك فى قوله:

﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ .

فليس له الجزاء الأوفى و الثواب الجميل من الله يوم القيامة فحسب ولكن له فى الدنيا المعاملة الطيبة منا و التكريم و المعونة و التيسير.

* وهكذا تمضى النفس المستقيمة توفر للمؤمنين الحرية، حرية فى إقامة شعائرها حرية فى التعبير عن رأيهم الصالح،حرية فى العمل و الحركة، حرية فى التيسير ليجدوا ما يحفزهم إلى الصلاح و الإنتاج . وفى ظل هذه النفوس المستقيمة فى أى موقع كان ينتشر العدل نابع من عمق الإيمان وينتشر الإيمان حينما توفر لأهله المناخ السليم و الجو الصالح يقول صاحب الظلال:

« أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون فى الدولة ، وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون، فعندئذ تتحول السلطة فى الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى و الفساد»..

ثانياً ــ الزهد فى المال وإيثار ما عند الله:

* وفى ثنايا رحلته إلى ما بين السدين يذهب إلى قوم وكان بين السدين فجوة عن طريقها تأتى قبيلتا يأجوج ومأجوج، علامة الفوضوية فى كل زمان فيفسدون فى الأرض ويهلكون الحرث و النسل ، و النفس المستقيمة لا تلتقى فقط مع الفساد على الأرض ، بل تواجهه وتحمى الضعفاء وتعاونهم فى صد الفساد والانحراف.

* ويعرض عليه القوم المال قائلين:

﴿ ... فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ ﴾ .

ويحدثنا القرآن عن رفضه للمال ، فحسبه صد الفساد ، أما هو يصنع الخير ، وهو منطق الأنبياء ، فعندما عرضت على سليمان عليه السلام هدية بلقيس قال :

﴿ ... أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم ... ﴾ النمل / ٣٦ .

ثالثاً ـ التواضع وتفجير طاقة العاملين:

* النفس المستقيمة كذلك لا تتعالى باستقامتها ولا تتطاول بعفتها بل تزداد تواضعا ، لقد جاءوا إلى ذى القرنين يطلبون معونته فهم المحتاجون إليه وإلى حمايته ومع ذلك وبأدب الصالحين قال : ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي ... ﴾ .

يطلب منهم العون وهم فى الحقيقة المحتاجون إلى معونته، علو ورقى النفس المستقيمة حال قيادتها للناس .

* ولا تقف عند التواضع فتعمل وتنتج بل إنها تفجر الطاقات فى صورة عمل من أجل الإصلاح ، فتشيع ثقة العاملين بأنفسهم بإبراز مواهبهم وإمكاناتهم وإعطاء ما يملكون من طاقات وابتكارات . انظر إلى ما تحتويه كلمة ذى القرنين ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ تعنى بذل أقصى ما تملكون من جهد عندكم . فنجاح الأعمال الضخمة يحتاج إلى عاملين على قدر ضخامة الأعمال ولا تفجر طاقاتهم إلا بقائد موهوب يحمل نفسا مستقيمة.

رابعا ـ الرجوع الدائم إلى الله :

وفى إبان السطوة والسيطرة لا تنسى النفس المستقيمة قدرة الله وجبروته ، وفى إبان النصر و التمكين والفتح لا تنسى كذلك أن واهب النصر والتمكين و الفتح هو الله ، وفى أبان نجاح العمل الضخم وتحقيق الأهداف الجسام لا تنسى أن ذلك يرجع إلى الله ورحمته ومعونته، فلا تدعى فضلا إنما هو فضل الله ، ولاتدعى قوة فالقوة لله جميعا.

* ها كم ذو القرنين قد نجح الهدف وتم العمل .

يقول : ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) ﴾.

ويصف لنا الشهيد سيد قطب ذلك قائلاً:

« فلم يأخذه البطر و الغرور ولم تسكره نشوة القوة و العلم ولكنه ذكر الله فشكره ورد إليه العمل الصالح الذى وفقه إليه وتبرأ من قوته إلى قوة الله ».

وهذا حال النفس المستقيمة دائما يحدثنا الإمام ابن القيم أنه رغم سعة ما حقق شيخ الإسلام ابن تيمية من علم ومعرفة كان دائما يقول : « ما لى شئ ولا منى شئ ولا فى شئ ». وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت :

أنـــا المـــكــــدى وابـــن المــكـــدى

وهـكـذا كـــــــان أبـى وجـــــــدى

وكان إذا أثنى عليه في وجهه يقول:

« والله إنى إلى الأن أجدد إسلامى كل وقت وما أسلمت بعد إسلاما جيدا ».

★★★

المنحرفون
قارون وملامحه

هو إنسان جشع استذل قومه وبغى عليهم فذهب وذهب قومه ، وهو فى كل زمان ومكان ، ففى كل عصر قارون ، يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ... ﴾ (القصص :٧٦) .

ومن خلال العرض القرآنى تظهر لنا ملامح قارون:

١ـ ﴿ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ .

فيا سبحان الله ويا للبون الشاسع بين استقامة النفس وانحرافها لقد ذهب ذو القرنين إلى قوم على الفطرة فأقام بينهم العدل ونشر الإيمان ووفر جوا صالحا للمؤمنين ولم يكن الزمن زمن رسالة وقد خلا العصر من نبى مرسل ... ولكن النفس المنحرفة تأبى إلا الظلم و الجور ولو كان زمانها زمن النبوة ولو كان بين ظهرانيها نبى مرسل... فبكل ما تحمله كلمة ﴿ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ أنه لم يحترم نبيا ولم يحترم جوا صالحا وفئة مؤمنة بل تسلط وغرور وبغى و تنكر تام لجميع الوشائج والقيم . وانحراف فى السلوك فإنه لا يرى فى الوجود إلا نفسه، فيغتر ويسخر من الناس...

٢ ـ ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ .

لقد آتاه الله ثروة طائلة وهائلة ، حتى أن الرجال لا يستطيعون حملها فاتخذ ذلك وسيلة للتسلط و الغطرسة و الجبروت وسبيلا للتعالى و الزينة، وهكذا النفس المنحرفة فى حقيقتها ضعيفة أمام الفتن فلم يصمد قارون أمام فتنة المال فى الوقت الذى تملك فيه نفس ذى القرنين من كل شئ سببا فتزداد عدلا وتواضعا وإيمانا وبهاءً .

٣ ـ ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ ﴾ .

إن طبيعة النفس هى التى تحدد قيمة صاحبها ومهمته هل من حماة الحق؟ أم من أهل التطاول و الغطرسة ؟... فقارون يعيش بين قوم مؤمنين وفئة صالحة فلماذا لم يلحق بهم؟ إنما ذلك لطبيعة الانحراف فى نفسه ... أما الطبيعة الإيمانية فى النفس

المستقيمة فهى التى تدفعها نحو العطاء و البذل.

فذو القرنين هو المؤمن و المجتمع كله من حوله فى ضلال فسخر كل ما يملك وما وهبه الله لصد العدوان و الفساد وتطهير المجتمع من شرور يأجوج ومأجوج ... فى الوقت الذى تنطلق فيه أصوات الفئة المؤمنة حول قارون قائلة له تارة ﴿ لَا تَفْرَحْ ﴾ وتارة تنصحة ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ وأخرى تقول له: ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ ولكن هيهات لهذا النوع أن يسمع و هيهات لتلك الطبيعة أن تتبدل أو تتغير .

٤ ـ ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ .

غرور وصلف وادعاء كاذب وافتراء مهين وغطاء سميك على الحقيقة من شدة النشوة الزائفة ، من قول قارون:

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾

هو مجهودى الخاص وتعبى وكدى واجتهادى فالفضل لى فى هذه الثروة ، فلى أن أفعل فيما أملك كيفما أشاء.

بينما فى هدوء وصفاء تعلن النفس المستقيمة حقيقة الأمر:

﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ..
فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ
وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾.

هذه بعض ملامح قارون دليل انحراف النفوس التى تفتن بشئ من الدنيا فلا حظ لها ولا فوز ، وأمام هذه النفس انقسم الناس إلى قسمين حينما خرج عليهم فى زينته فقال الذين يريدون الحياة الدنيا﴿ يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ﴾ . وأما أولوا الأفهام والعلم و البصيرة فكان قولهم ﴿ ... وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

هكذا تمضى هذه النفوس فى التاريخ تتكرر وتستمر فى كل عصر ، وتتوالى النهاية الفاجعة لهذا النموذج البئيس:﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾.

فعقاب الله يلاحق هذا النوع ، ولا عاصم من أمر الله إلا من رحم .



المجاهدون

صفات المجاهدين :

يقول الله تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ الأحزاب / ٢٣ .

تكشف الآيات بصورة جلية صفات المجاهدين المناضلين ، فقد رسم الله عز وجل أربع صفات لهؤلاء الرجال وهى:

١ ـ الإيمان:

* من أين استمد الأوائل القوة ؟ وما الذى أفاض عليهم بالصبر و الثبات؟ وما الذى واجههم بالموت فأحبوه ؟ وأتى لهم بالنصر؟...

أليس هذا النبع الذى لا ينضب ...أليس الإيمان ...تلكم القوة الخفية الدافعة.

* وبعقيدة مؤمنة عميقة تحركوا من أعماق قلوبهم ، فقد كان ارتباطهم مع الله وحده مباشر ، يعملون لإعلاء كلمته ودفع ركبه ورفع رايته.

* وبالإيمان تحرروا من قيود الأرض، فبعد أن تمكن الإيمان من قلوبهم ... أقبلوا على الله فى ظل الخشية و الرهبة من الله ... فهان كل ما سوى الله فى نظرهم، فما عرف قيد من قيود الأرض عليهم سبيلا.

فواجهوا الدنيا بلا إله إلا الله... فلم تهزهم قوة ولم ترهبهم سطوة.

٢ ـ الصدق:

* ولكأنى بالصدق توأم الإيمان ولا يكون الرجل صادقاً إلا إذا كان مؤمنا . وما أشد الارتباط الوثيق بين الإيمان والصدق لأن العقيدة المؤمنة تجعل الجهاد صادقا خالصا لا غش فيه ولا رياء، ومن ثم يدخل الرجل فى حياة الصادقين فنرى من فعله التضحية ودفع التكاليف.

٣ ـ البطولة :

وذلك فى قوله تعالى﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ نفوس لا تخشى الموت ولا تحرص إلا على لقاء الله ، فمن مات منهم سبق إلى الجنة ومن بقى فهو فى حركة دائبة شوقا فى أن يلحق بإخوانه . ويا لها من طعنة على أثرها صوت البطل يقول : فزت ورب الكعبة ، وآخر يستقبل الموت باسما : غدا نلقى الأحبة محمداً

وصحبه. لقد كانت البطولة عندهم تعنى التضحية بالمال و النفس وبذل المهج والأرواح لإعلاء الحق وشأنه.

وهذه البطولة تمدهم فى كل لحظة بالأمل فلا يعرف اليأس إلى قلبه طريقا، فمهما طال ليل الكفاح هم لا ييأسون.

٤ ــ الثبات :

فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾

هم يقاتلون لمبدأ وهدف ... فهل يتنازلون أم يتهاونون؟ ... كلا... ما عرف التهاون إلى قلوبهم سبيلا، وذلك لأنهم مع الحق فلم يأبهوا للباطل وصخبه مهما تعقدت الأمور وتدخلت الشياطين ، ففى هذه الأية : ﴿ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ كل الإصرار وكل الصمود الذى لا يعرف التنازل فمبادؤهم أغلى عليهم من أنفسهم.

رجال..

* أرأيت إلى الصديق بأى سلاح واجه المرتدين ؟.. وقف أمامهم شاهرا سلاح العقيدة فواجههم فى حرب مستعرة وهو الأسيف البكاء..

« والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونها لرسول الله لقاتلتهم عليها » .

* وعن قائد يخوض المعارك ويقاتل أمم الكفر فما عرف الضعف ولا عرفه ، وكم بارز الموت وسعى إليه فى لهفة، حينما يعرض عليه فى أحد المعارك أن يتراجع قليلا ويعتصم بالجبل يقول : كلا لا أعتصم بغير الله... يتحدى الموت والموت يفر منه ولا يموت إلا على فراشه ويمضى قوله فى أسماع الزمن: (وها أنت تموت على فراشك كما يموت البعير) رضى الله عن القائد سيف الله المسلول خالد بن الوليد وأرضاه .

* وآخر من الذين يتحدون الموت ، يشير على أصحابه أن يحملوه ويرفعوه على تروس من جلد ويقذفوه وراء الحصن... وذلك ليفتح الباب وتدخل جحافل جيش المسلمين ولا يبالى بالضربات عليه بل ينظر إلى النصر المرتقب إنه الصحابى الجليل البراء بن معرور.

* وهذا عكرمة بن أبى جهل الرجل الذى صنعه الإيمان ، يقف فى حرب الروم يوم تبوك ينظر إلى الفارين من الميدان فيقبل باصرار لا يبالى، ولكنه ينكر ما أصيب به

المسلمون ، ويتعاهد مع مجوعة من رفاقه على الثبات حتى الموت فيقول :« لقد قاتلت رسول الله من قبل فما فررت ، أأفر اليوم بعد أن شرح الله صدرى بالإيمان ؟. إنها لمهزلة.» . وكأنى بالريح قد حملت هذه الكلمة الصادقة لكل من يبعد عن حياة المجاهدين وأحب التخاذل، فقد مضى عكرمة بعدها يقاتل ويعمل سيفه فى الرقاب والهامات حتى تأتيه الشهادة ويذهب إلى ربه فائزا بالشهادة بعد أن مضى أبوه شقيا طريدا كافرا، فشتان بين نفس كافرة وأخرى مجاهدة ولو كانا من صلب واحد ...

* والنفس المجاهدة لا تعرف الفرار لأنها تعيش دوما مع الإقبال ، ويفر المسلمون وثابت بن قيس ثابت لا يفر، فكان موقفه اسمه ، واسمه موقفه، فيحفر لنفسه حفرة فى الرمل ويثبت فيها ، بعد أن أهال التراب على ساقه ، وذلك ليثبت فى موقعه ولا يفر من الموت...

وبقى أمر...

وهكذا نفوس المجاهدين لا يرهبها الباطل بحرسه وجيشه وصخبه.. وذلك لأنها فى حمى الله ... يدافع عنها وينصرها.

* والروح النضالية فى نفوس المجاهدين لا تهزم فى صاحبها حتى وهو يحتضر فهذا سعد بن الربيع وقد اقترب منه الموت فى غزوة أحد ، ويسأل رسول ﷺ عنه... فلما قيل له : إن رسول الله يسأل عنك أفى الأحياء أنت أم فى الأموات ؟ يقول :

- أنا فى الأموات.
- أبلغوا رسول الله ﷺ عنى السلام.
- وقولوا له:

إن سعد بن الربيع يقول له : جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته.

- وبلغوا الأنصار عنى السلام وقولوا لهم :

إن سعد بن الربيع يقول لكم:

لا عذر لكم عند ربكم إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطرف.

ثم تقبض روحه الكريمة ولما يعلم بذلك رسول الله ﷺ يرق له ويدعو له بالجنة..

وبهذا الالتزام بالإيمان حتى الاحتضار نرى نفوس المجاهدين... يستقبلون الموت وعلى أفواههم ابتسامة الرضا...

* والروح النضالية كذلك عند المجاهدين لا تعرف التوقف بل شيمتها الاستمرار

و الجهاد المتواصل يأتي الرسول مثقلا بجراح وآلام وكد الأحزاب ويدعو بالاستجمام طلبا للراحة ويأتيه جبريل قائلاً: أو قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال نعم .

فقال جبريل : إن ملائكة الله لم تضع السلاح منذ نزل بك العدو ، عفا الله عنك.. إن الله يأمرك بالمسير إلى يهود بني قريظة فإني عامد إليهم بمن معي فمزلزل بهم الحصون..

ولا يلبث الأفق أن يمتلأ بأمر رسول الله ﷺ بصوت بلال:« من كان سميعا بصيرا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة » ثم : « يا خيل الله اركبي »...

نضال إثر نضال .. وتوقفهم استعداد لقتال جديد ... وسكونهم تجميع ... همتهم تدريب .. تحركهم دماء وتضحيات ، يركب الرسول فرسه وحوله ثلاثة آلاف مازالت جراحهم حية ودماؤهم تنزف والراية بيد عليّ كرم الله وجهه لم تحل بعد ...



المتخاذلون

هم نقيض المجاهدين :

* يفرون من الميدان عند النزال ومتعللين بأوهى الأسباب.

* لا يضحون إلا بالكلام فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت.

* يضحون بعقيدتهم فى سبيل الدنيا انتصارا لأنفسهم ولا يضحون بأنفسهم فى سبيل الله...

يقول الله تعالى:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾ الأحزاب / ١٢ .

والموقف :

* جموع زائفة من ـ المشركين و المنافقين و اليهود والنصارى ـ على المدينة الآمنة.

* يؤلف بينهم الحقد الأسود على الإسلام ... أقبلت فى جيش ضخم وتنظيم عجيب.

* تحاول غزو المدينة بالقوة و الإجهاز على الإسلام وأهله.

* جموع مذهلة ومثيرة لا قبل للمسلمين بدفعها .. ففيهم قريش وغطفان وكنانة وتهامة وقبائل نجد ...

* وبرز المسلمون لهم يدافعون بروح عقيدتهم عن المدينة . ولكن ماذا تفعل القلة فى مواجهة هذا الإعصار الشديد المدمر؟.

* لجأ الرسول القائد كعادته إلى استشارة أصحابه... وانعقد مؤتمر الشورى لأخذ الرأى ..وبرز رأى سلمان الفارسى واقتنع به الجميع وهو حفر خندق وتأسى به أصحابه وسرت فيهم روح القدوة.

* وأثناء العمل تعترضهم صخرة كبيرة ...ويخبرون بها رسول الله ﷺ .. فيهوى عليها بمعول فتتحول إلى التراب ...فى ثلاث ضربات... ويخبرهم الرسول أنه رأى قصور الحيرة و الروم وصنعاء أثناء الضربات وأن أمته ستنتصر على هذه

الأمم .. واستبشر المسلمون وغمرتهم نشوة باهرة وقالوا : وعد صادق.

* وكلما اقترب منهم سيل الأعداء العارم ازداد تمسكهم دون أن يتخاذلوا أو يجبنوا ، لإيمانهم بالأمل ...(فتح الله وتمكينه لدينه)...

يقول تعالى: ﴿ ولَمَّا رأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا :
هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ الأحزاب / ٢٢ .

وفى براثن هذه الشدة ظهر كذلك المتخاذلون وفضحت بواطنهم وتعرت نفوسهم.



صفات المتخاذلين

١ ــ يشيعون الإشاعات :

فهم يشيعون الكلام الهابط اليائس المثبط للهمم ، ففى الوقت الذى تلقى فيه المؤمنون ما أخبرهم به الرسول أملا دفعهم إلى العمل ، اتخذ هؤلاء المتخاذلون ذلك سخرية ومادة للتهكم وقالوا: « يخبركم أنه يبصر من يثرب ـ انظر إلى كلمة يثرب ودعوتهم الباطنية إلى التفرقة والقومية القديمة ـ قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنتم تحفرون الخندق لا تستطيعون أن تغادروا مكانكم».

ولذلك قالوا عند وعد الرسول: ﴿ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا ﴾.

٢ ــ ينادون بالانسحاب :

يصور رب العزة هذا الموقف العصيب قائلاً:

﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا (١١) ﴾ الأحزاب / ١٠:١١ .

فى هذا الموقف الشديد :

■ عرض الأعداء حلا سلمياً وهو أن يأخذوا ثلث ثمار المدينة ويرجعوا وكاد الموقف أن ينتهى بقبول هذا العرض.

■ ولكن أصواتا حرة ترتفع معترضة قائلة :

(كلا لا نعطيهم و الله إلا السيف) .

وعند صعب هذا الموقف وشدته كذلك ظهر نقيض هذا الصوت الحر ، وهو صوت التخاذل ينادي بالانسحاب.

يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ .

ينادون بالانسحاب لإحراج موقف الرسول فى أصعب الظروف...

ويقولون:﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ «ويرد العليم : ﴿ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ ﴾ ويفضح نواياهم : ﴿ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا ﴾.

يقول صاحب الظلال : (الجزء الخامس ص ٢٨٣٨)

(فهم يحرضون على ترك الصفوف، وهى دعوة خبيثة تأتى النفوس من الثغرة الضعيفة فيها ، ثغرة الخوف على النساء والذرارى) .

٣ ـ يضحون بالعقيدة

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا (١٤) ﴾.

و﴿ الْفِتْنَةَ ﴾ الكفر و الردة عن دينهم ﴿ لآتَوْهَا ﴾ لفعلوها سراعا غير مترددين ﴿ إِلاَّ يَسِيرًا ﴾ من الوقت . والمعنى :

لو اقتحم عليهم العدو المدينة وطلب منهم أن يكفروا لفعلوا وما ترددوا إلا وقتا يسيرا فى ذلك .

فهى نفوس خائرة ضعيفة تضحى بالعقيدة ولاتضحى بالنفس.

٤ ـ ينقضون العهد :

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً (١٥) ﴾..

وهذه مواجهة من القرآن تفضح هذه النفوس فهم لم ينسحبوا عرضاً ، إنما انسحبوا نقضاً لعهدهم السابق مع الله ألا يعودوا للفرار أبدا بعد أحد ، أما الأولى فقد ثبتهم الله برحمته كدرس من دروس التربية فى أوائل عهد الجهاد ، فأما اليوم وبعد الزمن الطويل و التجربة الكافية فإنهم ينقضون العهد طلباً للنجاة من الخطر والفزع.

٥ ـ يعوقون الحركة الإسلامية:

فهم مصدر تعويق للأهداف الكبيرة ويسعون بالتخذيل فى صف الجماعة المسلمة يدعون بالقعود ولا يشهدون الجهاد إلا لماماً يقول الله تعالى: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ

سلقُوكُم بِألسِنَةٍ حِدَادٍ أشِحَّةً على الخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأحْبَطَ اللَّهُ أعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) ﴾ .

فما أبشع هذه الصفات ، يقول صاحب الظلال:

(ففى نفوسهم كزازة على المسلمين ، كزازة بالجهد ، كزازة بالمال، وكزازة فى العواطف و المشاعر على السواء) .

ثم يقول بعد ذهاب الخوف ومجئ الأمن:

(فخرجوا من الجحور ، وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش، وانتفخت أوداجهم بالعظمة ، ونفشوا بعد الانزواء ، وادعوا فى غير حياء ما شاء لهم الادعاء ، من البلاء فى القتال و الفضل فى الأعمال و الشجاعة و الاستبسال) .

ثم يقول :

(وهذا النموذج من الناس لا ينقطع فى جيل ولا فى قبيل موجود دائما ، وهو شجاع فصيح بارز، حيثما كان أمن ورخاء ، وهو جبان صامت منزو، حيثما كان هناك شدة وخوف وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير لا ينالهم منه إلا سلاطة اللسان) (الظلال الجزء الخامس) .



الدعاة إلى الله
بين الجهاد والتخاذل

والدعوة إلى الله لون من ألوان الجهاد فى سبيل الله ، وتحتاج كذلك إلى رجال مثل الرجال الأوائل ، هؤلاء الرجال هم الدعاة الصادقون الذين يحملون هذا الإرث الضخم الثقيل ، وفى حياة الدعاة للمتأمل البصير أمور وأمور ، فقد يزداد نور الدعوة اتساعا وبهاءً ثم لا يلبث أن يخبو ويضعف ، وهذا مرهون بحامل الدعوة قوة وضعفا .. وقد وضع الإمام ابن القيم العلاج الأمثل فى مدراج السالكين وهو يتحدث عن حياة حملة هذا الدين ، نستقى مما عرض من علاج دواء لأنفسنا ونحن نقوم بمهمتنا التى كلفنا بها رب الأرض و السموات...

فهناك ثلاثة صفات لابد أن تتوفر فى نفوس الدعاة وهى:

١ ـ علو الهمة .

٢ ـ صفاء القصد.

٣ ـ صحة السلوك.

١ ـ علو الهمة:

وعلو الهمة: ألا تقف النفس دون الله ولا تتعوض عنه بشئ سواه ولا ترضى بغيره بدلا منه ، ولا تبيع حظ القرب و الأنس بالله والفرح و السرور والابتهاج به بشئ من الحظوظ الخسيسة الفانية ، فالهمة العالية على الهمم ، كالطائر العالى على الطيور لا يرضى بمساقطهم ولا تصل إليه الآفات التي تصل إليهم ، فإن الهمة كلما علت بعدت عن وصول الآفات إليها وكلما نزلت قصدتها الآفات من كل مكان . فإن الآفات قواطع وجواذب وهى لا تعلو إلى المكان العالى فتجتذب منه وإنما تجتذب من المكان السافل : فعلو همة المرء عنوان فلاحه ، وسفول همته عنوان حرمانه.

٢ ـ صفاء القصد:

وهو خلاصه من الشوائب التى تعوقه عن مقصوده ، فصفاء القصد تجريده لطلب المقصود له لا لغيره وهناك آفتان فى القصد :

(أ) عدم التجرد للمطلوب.

(ب) أن يطلبه لغيره لا لذاته.

ويراد بصفاء القصد:

خلوص القصد من كل إرادة تزاحم مراد الرب تعالى.

٣ ــ صحة السلوك :

وهوسلامته من الآفات و القواطع ويصح بثلاثة أشياء:

(أ) اتباع الرسول ﷺ .

(ب) الإعراض عن داعى البطالة و الوقوف و الدعة.

(ج) النظر الدائم إلى المقصود و الغاية وجامع ذلك فى هذه العبارة:

- أن يكون واحد لواحد... عبدٌ لرب.
- فى طريق واحد... طريق الحق.
- فلا يتقسم طلبه ولا مطلوبه ... الوضوح.
- ولا يتكون مطلوبه ... التجرد.

وهناك كذلك ثلاثة لابد أن تختفى من نفوس الدعاة وهى :

١ـ التوقف فى الطريق.

٢ـ طلب الشهرة .

٣ ـ الإعلان وعدم الخفاء .

١ـ التوقف فى الطريق :

وعكسها الحركة الدائبة و العمل المتواصل فلا ينقطعون بشئ سوى الله عنه، فكل ما يقطع عن الله وهم فى الطريق لا يقفون معه، وكل ما يصل إلى الله لا يفارقونه، فبذلك يسبقون الناس فهم المفردون السابقون﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ... ﴾ آل عمران / ١٣٣ .

٢ـ طلب الشهرة :

فلا يبحث عن اسم يشتهر به فى الناس أو عمل يشهره بل إن سئل عن شيخه؟ قال: الرسول ، وعن طريقه قال: الاتباع ، وعن خرقته؟ قال: لباس التقوى، وعن مذهبه؟ قال : تحكيم السنة، وعن مقصوده ومطلبه؟ قال: (يريدون وجهه) وعن رباطه وثكنته؟ قال: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ... ﴿٣٧﴾ ﴾ النور / ٣٦ : ٣٧ ، وعن نسبه؟ قال :

أبى الإســــلام لا أب لـى ســـــواه
إذا افـــتـــخــــروا بقـــيس أو تميم

وعن مأكله ومشربه؟ قال : « مالك ولها ؟ معها حذاؤها وسقاؤها ترد الماء وترعى الشجر حتى تلقى ربها» إشارة إلى جواب النبى ﷺ لمن سأله عن لقطة الإبل؟

٣ـ الإعلان وعدم الخفاء :

فهم أخفياء أبرار لم يعرفوا بين النـــاس ولم يشر إليهم بالأصابع وفى الحديث : « لكل عامل شرة ـ أى نشاط وحركة ـ ولكل شرة فترة فإن صاحبها سدد وقارب فارجو له وإن أشير إليه بالأصابع : فلا تعدوه شيئا » .

وتفسير ذلك قد يكون الرجل نشيطاً متحركاً مجتهداً ثم ينقطع عن الخلق ويعود إلى حال أهل الدنيا و الشهوات فإذا مر بالناس أشاروا إليه وقالوا : هذا كان كذا ثم فتن وانقلب فهذا المراد بقوله ﷺ : « فلا تعدوه شيئاً » وذلك لأنه انقلب على عقبية ورجع بعد الشرة إلى أسوأ فترة فذاك كانت شرته فى الطاعات ثم فترت وعادت إلى الفجور.

وقد يكون الرجل منهمكاً فى دنياه ثم يوقظه الله لآخرته فيترك ما هو عليه ويقبل على شأنه فإذا مر بالناس أشاروا إليه بالإصابع قالوا: هذا كان مفتوناً ثم تداركه الله ، فهذا كانت شرته فى المعصية ثم صارت إلى الطاعة فتلك علامة خير ونجاة أما الأولى فكانت علامة شر ومورد هلاك .

فلابد على الدعاة أن يتمسكوا بهذا الضياء و النور وهم فى طريق حوصر من جميع جهاته بقواطع رهيبة وعوائق هائلة حتى تتحقق الأهداف المرجوة ويعم النور وتختفى الظلمات الخاسرة.



البدريون

* كانت بدر بدراً فى التاريخ .. بدراً فى السماء.. بدرا فى الأرض .. بدراً وفرقانا بين الحق و الباطل .. كان البدريون لا يتقدمهم أحد فى المجتمع الإسلامى.

* رحم الله سعداً بن أبى وقاص كان يعلم أبناءه المغازى و السرايا ويقول :« يا بنى إنها شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها». وكان يقول أحدهم : « كنا نعلم مغازى رسول الله ﷺ كما نعلم السورة من القرآن » وبعد طول ليل .. ينزل الأمر بالجهاد من السماء .. وقبل بدر كانت سرايا يبعثها الرسول ﷺ ولم يشترك فيها من الأنصار أحد .. لحظة محكمة من رسول الله ﷺ.. فالمهاجرون هم أصحاب قضية أخرجوا من ديارهم وظلموا ولذا عند أمر الجهاد يقول الله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ... ﴾ الحج / ٣٩ : ٤٠ .

*** ولذلك كانت الخطة ترمى إلى :**

١ـ إحياء القضية فى النفوس .

٢ـ استعادة الحقوق المسلوبة.

٣ـ اختيار الرجال فهم على مشارف جهاد طويل المدى.

ومن ذلك ما جاء فى كتاب النبى ﷺ لعبد الله بن جحش أن يسير حتى ينزل نخلة بين مكة و الطائف ولا يستكره أحداً من الجنود على السير معه.. وقال لهم : فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها.. فلينطلق .. ومن كره ذلك فليرجع .. فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ وكان جواب الجميع : أن ساروا ولم يتخلف منهم أحدٌ...

٤ـ حرص الرسول على سلامة الجند وتأمينهم، لأهمية العنصر فى خدمة الإسلام ، ففى سرية عبد الله بن جحش، تغيب سعد بن أبى وقاص وعتبة ، يبحثان عن بعير لهما قد ضل وقد جاءت قريش تفدى الأسيرين بهما قائلاً : « لا نفديكما حتى يقدم صاحبانا فإنا نخشاكم عليهم فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم» فقدم سعد وعتبة فأفداهما رسول الله ﷺ.



بدر

السبب :

رمى الرسول إلى حصار اقتصادى على الكافرين وبالتالى إلى شلل عسكرى وذلك ليسترد المسلمون أموالهم التى استولت عليها قريش فقال : « هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليهم » ، فى الوقت الذى صور فيه المشركون أنفسهم من لصوصية وسلب بقولهم : « إن أصابها محمداً لن تفلحوا أبداً » .

ضمضم :

جاء مكة بصورة مثيرة يتأثر بها كل من رآها أو سمع بها إذ جاءهم مرسلاً من أبى سفيان وقد جدع أنف بعيرة وشق قميصه من قبل ومن دبر ، ودخل مكة وهو ينادى بأعلى صوته:

(يا معشر قريش : اللطيمة اللطيمة أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ـ لا أرى أن تدركوها ... الغوث ... الغوث) .

الشورى:

وكعادته ﷺ فى مؤتمر الشورى ويقف المقداد يعلن صوت المهاجرين : « لانقول كما قال قوم موسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك ».

فسر النبى ﷺ ولكنه أراد الأنصار فقال :

« أشيروا على أيها الناس».

فقام سعد يحمل صوت الأنصار قائلاً : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟ قال : نعم فقال: « فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ».

وكاد الأمر ينتهى لولا...

لولا نفوس كافرة فقد بعث أبو سفيان برسالة إلى مكة :

« إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم فقد نجاها الله فارجعوا..». وكاد الأمر ينتهى لولا صلف وغرور أبى جهل الذى قال : « والله لا نرجع حتى نرد بدراً ..فنقيم ثلاثاً.. فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان .. وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا بعدها ..فامضوا ».

وهكـذا صـف الكافـريـن غيـر مسـتقـر لانهيـار أنفسـهم ، زعـيم يرى «فارجعوا»وآخر « فامضوا » لصلفه وغروره...

نعم الله على البدريين

(أ) من أعظـم النعـم تقليـل عـدد المشـركين فى عين رسـول الله ﷺ وعين المسلمين . وتكثير عدد المسلمين فى أعين المشركين:

يقول تعالى : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ... ﴾ الأنفال / ٤٣ .

ويقول عبد الله بن مسعود : لقد قللوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبى : تراهم سبعين ؟ . قال : لا بل مائة.. حتى أخذنا رجلاً منهم... أسيراً ...فسألناه فقال : كنا ألفاً.

(ب) إنزال الملائكة :

لتأييد المؤمنين ولتقاتل معهم يقول تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ الأنفال / ٩ .

وينادى الرسول ربه : « اللهم نصرك الذى وعدت » ، وما هى لحظات ... حتى يقول :« أبشر يا أبا بكر » ثم خرج يقول : « سيهزم الجمع ، ويولون الدبر » .

(ج) إلقاء الرعب فى قلوب المشركين:

يقول تعالى :﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ ، ويقول ﷺ : « نصرت بالرعب مسيرة شهر».

★★★

البدريون



وبعد هذه المعايشة مع جو بدر ونعم الله على البدريين ، يطيب لنا أن نشهد بعضاً من هذه النفوس المتكاملة المستقيمة ، والتى سميت فى الإسلام بـ (البدريين) .

١ـ معاذ بن الجموح :

كان سيفه صاحب الضربة القاضية على أبى جهل، جاءته ضربة من عكرمة بن أبى جهل فقطعت يده، ولكنها تعلقت بجلدة فيه، وأخذ يقاتل الكافرين ، ويسحبها

خلفه .....فلما آذته وضع عليها قدمه ثم طرحها وجاء بها رسول الله ﷺ ... فكان بدرياً .

٢ـ سعيد بن خيثمة :

إنه أحد النقباء الاثنا عشر .. ولما دعى إلى الجهاد قال أبوه خيثمة: « لابد لأحدنا أن يقيم فآثرنى بالخروج وأقم مع نسائك ». فأبى سعد وقال : « لو كان غير الجنة آثرتك به ، إنى لأرجو الشهادة فى وجهى هذا ».

ومازال الأمر بين الابن وأبيه فاقترعا ، فخرج سهم سعد ، فخرج للجهاد فاستشهد ، فاستحق أن يكون بدرياً.

٣ ـ عمير بن أبى وقاص:

ولما استعرض الرسول الجيش رد عمير ، لصغر سنه ، ولكنه يبكى فأجازه ، وكان عمير يتوارى ، فقال له سعد : مالك يا أخى ؟ قال: إنى أخاف أن يرانى رسول الله ﷺ فيستصغرنى ويردنى .. وأنا أحب الخروج لعل الله يرزقنى الشهادة... وبهذا الاصرار مضى عمير إلى ربه بدرياً ، رغم صغر سنه.



نفوس في الفتح

* وفى الفتح ظهرت نفوس ونفوس، فقد كان فتحاً للإسلام بعد طول جهاد مداه واحد وعشرون عاماً، فإن كانت بدر بداية فالفتح نهاية، ودقائق النفوس تتعرى عند البدايات ، كما تنكشف عند النهايات كذلك.

* إنه اليوم الذى دخل فيه الناس فى دين الله أفواجاً.. وجاء النصر و التمكين.. وكان ارهاصاً بتمام النعمة وكمال الرسالة وارتضاء الإسلام ديناً.

نفوس مغلقة :

* وبالنظر لسبب الفتح نرى أن النفوس المغلقة التى كادت أن تسبب إراقة للدماء كعادتها فغرور أبى جهل كان السبب الرئسى فى دماء بدر... فهذه خزاعة فى حلف مع رسول الله ﷺ وتلكم بنو بكر فى حلف قريش .. وتأتى عن بكرة أبيها يحوطها الغرور وتغلفها حمية الجاهلية وتعتدى على خزاعة إلى الحرم .. حيث لا قتال عند الحرم .. وهكذا تعارف العرب .

* ومن وراء بنى بكر تأتى قريش فبعد أن وجه الرسول طاقات المسلمين نحو الدعوة ونشر الإسلام وبعد جهاد دام سبعة أعوام ... تخرق قريش العهد.

* وترتفع صيحات بنى بكر لقائدها نوفل بن معاوية وهم داخل الحرم:
إننا دخلنا الحرم ..إلهك ..إلهك ..

ويرد صاحب النفس المغلقة: (لا إله لكم اليوم يا بنى بكر ... أصيبوا ثأركم)

رسول خزاعة:

ويسرع عمر بن سالم رسول خزاعة إلى رسول الله ﷺ يقص عليه نبأ قومه فلما قدم المدينة وقف على النبي وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى الناس يقول :

يارب إنى ناشد محمدا
حلف أبينا وأبيه الأتلدا
فانصر هداك الله نصرا اعتدا
وادع عباد الله يأتوا مددا
إن قريشا أخلفوا الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكد

ويرد الرسول ﷺ: « نصرت ياعمرو بن سالم » وكانت البداية...

أبو سفيان :

* وتفزع قريش من خرقها الاتفاقية ويخرج أبو سفيان مسرعا إلى المدينة لمقابلة النبى والاعتذار واصلاح ما أفسده قومه، ولكنه لم يجد فى استقباله أحدا لخلاف عقيدته وتنافرها مع العقيدة المؤمنة.

* ويدخل على ابنته « أم حبيبة » زوج الرسول ﷺ وأم المؤمنين فتطوى عنه الفراش حينما أراد أن يجلس عليه:

فيقول: يا بنية ما أدرى أرغبت بى عن الفراش ؟ أم رغبت به عنى ؟

فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس...

قال : والله لقد أصابك بعدى شر . ثم خرج...

* ويحاول أبو سفيان مقابلة الرسول و التكلم معه ويستشفع بأبى بكر ليحدث النبى فيرفض ثم يذهب إلى عمر الذى قال له كعادته العمرية : « أنا أشفع لكم عند رسول الله ... و الله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ».

ويتركه خائبا إلى على بن أبى طالب الذى أشار عليه بالرجوع فرسول الله قد عزم على الأمر ... وفى الوقت نفسه كان الرسول ﷺ يعبأ المسلمين للقاء المنتظر.

*** نفوس تخطئ :**

* وهذا النوع من النفوس لم يظهر فى تاريخ الإسلام إلا يوم الفتح حينما أعلم حاطب بن أبى بلتعة - وهو من البدريين الذين شهدوا بدرا - الكافرين فى مكة بوجهة رسول الله ﷺ .. وذلك فى رسالة بعث بها مع وافدة مستأجرة من نساء قريش ولما أوحى إلى رسول الله ﷺ بذلك ... أمر عليا و المقداد بالقبض على المرأة و الرسالة الخائنة ، ويلحق الرجلان بالمرأة التى تنكر فى بادئ الأمر الرسالة ، ولكن عليا والمقداد يحزمان الأمر ويقولان لها : « لتخرجن الرسالة أو لنكشفنك » .

* ويا ليت شعرى من تلك الفاجرة الكافرة التى هى على كفرها وضلالها على حياء فقد انهارت أمام حزم الرجلين قائلة لهما: اعرضا عنى « وذلك حتى لا يريا شعرها »... فقد كانت تخفى الرسالة بين ضفائر شعرها .

* وفى المدينة يجرى تحقيق مع حاطب بن أبى بلتعة الذى أعلن فيه أنه مؤمن وما دفعه للكتابة إلا أنه أراد أن تكون له يد عند قريش فكل الأصحاب لهم يد وأهل وخشى هو ذلك ... فأراد أن تكون له عندهم يد تشفع له عند الهزيمة ... ورد حاطب بهذا المنطق الخاطئ وهو لا شك خطأ ما بعده خطأ .

* وبمنطق عمر يقف أمام النفس الخاطئة شاهراً سيفه : اضرب عنقه يا رسول الله فقد نافق . ولكن الرسول ينظر بمنظار الإسلام :

« وما يدريك يا عمر.. لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقد لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ».

* هذا هو الإسلام الذى يعترف بماضى الرجل وما أداه من تضحيات ، ولا ينكرها عند الخطأ ، فكل نفس للخطأ هى تتعرض ... وينزل القرآن الكريم شاهداً لحاطب بالإيمان مع خطئه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ ... ﴾ الممتحنة / ١ .

وهكذا نفوس تعيش بيننا .. مؤمنة..

فقد تخطأ .. ورب يعلم سريرتها وما تخفيه..

فيغفر.. وهو الغفور.

نفوس تأتى بالفخر :

* ويرضى الرسول ﷺ عاطفة الفخر فى نفس أبى سفيان فيقول لقريش : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ويأتى أبى سفيان قريشاً صارخاً:

(يا معشر قريش ... هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن) ، وتسبه هند زوجته بأفظع الكلمات قائلة :

(قبحت من طليعة قوم) . ولم يكترث بها ويعاود تحذيره لقومه مؤكداً

(من دخل دار أبى سفيان فهو آمن).

فما زالت عاطفة الفخر تجرى فى نفسه .. ثم يقول له القرشيون قاتلك الله ؟ وما تغنى عنا دارك؟

يقول ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .. ومن دخل المسجد فهو آمن...

* ويضم الرسول ﷺ مسلكاً آخر بأن يوصى العباس عمه باحتجاز أبى سفيان فى مضيق الوادى حتى يرى جموع المسلمين فتنهزم روح المقاومة عنده... ويسأل أبو سفيان من هؤلاء ؟ ويرد العباس: مزينة فيقول: ما لنا ولمزينة؟ مالنا ولسليم؟ ومازال يردد : مالنا ولبنى فلان ؟.. حتى يمر رسول الله ﷺ فى الكتيبة الخضراء لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد فيقول سبحان الله يا عباس من هؤلاء ؟ فيقول العباس : هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين و الأنصار .. فيقول أبوسفيان : لقد أصبح ملك ابن

أخيك اليوم عظيما، ويصحح العباس: يا أبا سفيان: إنها النبوة.

نفوس تنسى :

هى نفوس مؤمنة، قوى إيمانها وثباتها وعقيدتها، ولكنها فى فترات الانتصار قد تنسى ، وفى هذه اللحظات تعزل حتى لا يدفعها حماسها الشديد وغيرتها على الدين إلى الغلو و السير بالجند فى غير الهدف ، فهذا سعد بن عبادة سيد الأوس يصيح بعد نشوة النصر عند الفتح : « اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشاً ».

وتبلغ هذه القولة إلى القائد الرسول فيعلق:

« بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، اليوم أعز الله فيه قريشاً ».

ويأمر بنزع اللواء من سعد وتعطى القيادة لابنه مخافة أن تكون لسعد صولة فى الناس تعوق عن الفتح.

رسول كريم :

ويدخل رسول الله مكة بعد أن أخرجته طريداً مهاجراً بعد إيذاء وتعذيب دام ثلاثة عشر عاماً ..الآن وبعد جهاد دام ثمانية أعوام بالسيف ... رسول الله يدخل مكة فاتحاً... لو كان عسكرياً لعمت الدنيا بأقواس النصر ولكنه الرسول القائد المبعوث رحمة للعالمين:

يدخل خاشعاً ... منحنياً على رحله.. فى تواضع جم.

لقد كان يذكر فصولاً منذ أن صدع بالأمر فطورد ، فأى عاطفة جاشت فى صدر رسولنا الحبيب الذى زادته هذه العواطف خشوعاً وتواضعاً فكان خشوع الفتح وتواضع العظماء.

ويجمع القريشيين ويقول لهم : ما ترون أنى فاعل بكم ؟ يقولون : أخ كريم وابن أخ كريم .

يقول : أقول لكم كما قال يوسف لأخوته:

﴿ قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ... ﴾ يوسف / ٩٢ .

« اذهبوا فأنتم الطلقاء »..

ومازالت فى أسماع الزمان ... اذهبوا فأنتم الطلقاء .

نفوس تأتى بالتلطف :

وهذا فضالة بن عمير يقترب من الرسول يريد أن يجد له فرصة ليقتله وينظر إليه رسول الله ﷺ نظرة يعرف بها طويته ثم يستدعيه ويقول له : بماذا كنت تحدث به

نفسك : يقول: لا شئ .. كنت اذكر الله ؟ فضحك النبى ثم قال : استغفر الله .. وتلطف معه الرسول ﷺ ثم وضع يده على صدره فانصرف الرجل يقول : « ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شئ أحب إلى منه ».

وكانت لفضالة مغامرات مع النساء فى جاهليته فمر على إحداهن ، فقالت له : هلم إلى الحديث ، فانبعث قائلاً :

قـــالـت هـلـم إلى الحـــديـث قلت : لا
يـأبـى عـلـيـك الـلـه والإســــــلام

وبعد الفتح :

يصعـد بلال يؤذن فى أرجـاء مكة بما كـانت تحاربه بالأمس من أجله : لا إله إلا الله .. محمد رسول الله .

وحوله الأصنام تشهد مع العاملين أنه لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ثم تحطمت آلهة الأمس بأيدى عبادها ويردد النبى قول الحق: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ الإسراء / ٨١ ، وطوبى لهؤلاء الجند الذين يضحون بأنفسهم ولم يروا النصر ويكفيهم أنهم جاهدوا وحصلوا على الجنة...يكفيهم أن دماءهم رسمت الطريق لأجيال من بعدهم تغذى الطريق وتقوى السالكين..

أين حمزة الأسد؟

أين مصعب الداعية؟

مضوا إلى ربهم ولم يروا الفتح ؟

ومضى درس للأجيال :

أنه ليس من الضرورى أن يرى جند الإسلام نتائج جهادهم من التمكين والفتح.



الثابتون عند الفتن

عند الفتنة :

وعندما تأتى الفتنة تأتى كسيل عارم وتختلط الأمور وما فتئ رسول الله ﷺ يحذر الأصحاب الكرام من الفتنة ، فعن عبد الله بن مسعود قال : قال ﷺ : « يأتين على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينه إلا من فر بدينه من قرية إلى قرية ، ومن شاهق إلى شاهق ، ومن حجر إلى حجر ».

وعنه قال:

« ذكر رسول الله ﷺ الفتنة وأيام الهرج ، قلت : وما الهرج ؟ قال : حين لا يأمن الرجل جليسه . قلت فيم تأمرنى إن أدركت ذلك الزمان ؟ قال: تكف نفسك ودارك ويدك وادخل دارك، قال : قلت يا رسول الله : أرايت إن دخل على دارى؟

قال : ادخل بيتك ، قال : قلت يا رسول الله : أرايت إن دخل على بيتى ؟ قال: فادخل مسجدك واصنع هكذا ـ وقبض بيمينه على الكوع ـ وقل : ربى الله حتى تموت على ذلك » .

نفوس عاقلة راشدة :

* وعند الفتنة تنكشف حقيقة النفوس ، وقد خرجت منها رغم شدتها نفوس عاقلة راشدة.. فإذا بهم يعتزلونها ولا يخوضون مع الخائضين حتى تهدأ رياحها وتستقر أحوالها وتلوح معالم الحق بعد أن اختلط بالباطل وتشرب به ... فكانوا لنا هدياً نسير على خطاهم ونترسم طريقهم: ﴿ ... وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ... ﴾ لقمان / ١٥ .

فقد جاء عبد الله بن عمرو بن العاص يسأل رسول الله ﷺ : كيف أفعل عند ذلك جعلنى الله فداك؟ فقال ﷺ : « الزم بيتك ، واملك عليك لسانك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تنكر ، عليك بأمر الخاصة ، ودع عنك أمر العامة ».

* **وقد قسم الرسول ﷺ الحياة عند الفتنة إلى قسمين :**

القسم الأول :

وهو أمر الدين « خذ ما تعرف ودع ما تنكر ».

« وما تعرف » هنا كل الفرائض و الواجبات التى أمر بها الإسلام ودع ما تنكر من

الفتنة وما لم يكن على عهده وسنة رسوله ﷺ .

القسم الثاني:

وهو أمر الدنيا فى قوله : « عليك بأمر الخاصة ودع عنك أمر العامة » أى عليك بما يخصك ويعينك من إعالة أهلك وسياسة ذويك والقيام لهم والسعى فى مصالحهم ، ونهى رسول الله ﷺ عن التعرض لأمر العامة و التعاطى لسياستهم والترأس عليهم فى أمورهم ، وإلى هذا الشرح ذهب الإمام أبو سليمان البستى.

* إذن فحاصل الأمر عند الفتن اعتزالها و الفرار منها وعدم الخوض فيها لئلا يجرف سيلها العارم المتعرض لها فيهلك وما التوفيق إلا من عند الله ، نسأل الله لنا ولكم الثبات و النجاة و السلامة ، فقد سئل رسول الله ﷺ عن الفتنة : فماذا تأمرنا ؟ قال : « كونوا أحلاس بيوتكم » ويؤكد الإمام ابن سيرين على أن اعتزال الفتن عبادة بقوله : العزلة عبادة.

* وربما يسأل سائل : كيف أجلس فى دارى ؟ وهل يطيق الرجل ذلك ؟ وقد حضه الإسلام على الحركة و السعى ؟ .

« إنما يستوحش الإنسان بالوحدة لخلاء ذاته وعدم الفضيلة من نفسه فيتكثر حينئذ بملاقاة الناس ، ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم ، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ويتفرغ لاستخراج الحكمة » .

ولعل فى قولهم الإجابة الشافية لاعتزال الفتن وكيف يكون حال المسلم المؤمن بربه عند الفتنة إلى قسمين أحدهما للدين وثانيها للدنيا كما تبين .

الثابتون

وهذه أمثله لنفوس عاقلة راشدة خرجت من كل فتنة غبراء مظلمة.

١ــ سعد بن أبى وقاص :

كان سعد بن أبى وقاص فى إبل له وغنم فأتاه ابنه عمر بن سعد فلما رآه قال: أعوذ بالله من هذا الراكب، فلما انتهى إليه قال: يا أبت أرضيت أن تكون أعرابياً فى إبلك وغنمك والناس يتنازعون فى الملك ؟

فضرب سعد صدر عمر بيده وقال : اسكت يا بنى فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى» وهكذا كان سعد .. اعتزل الفتنة وأبى أن يخرج مع أحد الفريقين وصار مثلاً يحتذى وخاصة حينما ضرب للأمة مثلاً

فقال مبرراً موقفه العاقل الراشد :

مثلنا ومثلكم كمثل قوم كانوا على محجة بيضاء . فبينما هم كذلك يسيرون هاجت ريح عجاجة فضلوا الطريق و التبس عليهم فقال بعضهم : الطريق ذات اليمين فأخذوا فيها فتاهوا وضلوا .

وقال آخرون : الطريق ذات الشمال فأخذوا فيها فتاهوا وضلوا .

وقال آخرون: كنا فى الطريق حيث هاجت الريح فنيخ فأناخوا ، فأصبحوا فذهب الريح وتبين الطريق.فهؤلاء هم الجماعة . قالوا : نلزم ما فارقنا عليه رسول الله ﷺ حتى نلقاه ولا ندخل فى شئ من الفتن .

قال ميمون :فصار الجماعة و الفئة التى تدعى فيه الإسلام ما كان عليه سعد بن أبى وقاص ، الذين اعتزلوا الفتن حتى أذهب الله الفرقة وجمع الألفة ، فدخلوا الجماعة ولزموا الطاعة ، وانقادوا فمن فعل ذلك ولزمه نجا ، ومن لم يلزمه وقع فى المهالك .

يقول الشيخ البستى معقباً :

« ومن اعتزل تلك الفتنة حتى انجلت محمد بن مسلمة الأنصارى وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، فى عدة كثيرة من الصحابة » ، فما كان من أمرهما .

٢ ــ محمد بن مسلمة الأنصارى :

يقول ثعلبة: دخلنا على حذيفة فقال: إنى لأعرف رجلاً لا تضره الفتن شيئاً ، فخرجنا فإذا فسطاط مضروب فسألناه عن ذلك فقال : « ما أريد أن يشتمل على شئ من أمصارهم ، حتى تتجلى عما انجلت ».

٣ ــ عبد الله بن عمر بن الخطاب :

* كان أشد الصحابة حذراً من الوقوع فى الفتن وأكثرهم تحذيراً للناس من الدخول فيها، وعاصرجميع الفتن حتى أنه بقى إلى أيام فتنة ابن الزبير ، فلم يقاتل معه ولم يدافع عنه ، ويروى لنا أحد التابعين كيف كان حال عبد الله عند هذه الفتنة قائلاً :

كنا مع عبد الله بن الزبير و الحجاج محاصره، كان ابن عمر يصلى مع ابن الزبير، فإذا فاتته الصلاة معه، وسمع مؤذن الحجاج انطلق فصلى معه، فقيل لم تصلى مع ابن الزبير ومع الحجاج؟ فقال: إذا دعونا إلى الله أجبناهم، وإذا دعونا إلى الشيطان تركناها .

* وكان ينهى ابن الزبير عن طلب الخلافة و التعرض لها ، يروى ابن أبى عقرب

قال: لما قتل الحجاج ابن الزبير ، وصلبه على طريق المدينة يغايظ به قريش، فمر به عبد الله بن عمر فوقف عليه فقال: السلام عليك أبا خبيب - ثلاثاً - والله كنت أنهاك عن هذا - ثلاثاً - والله كنتَ صواماً قواماً وصولاً للرحم ، والله لأمة أنت شرها لنعم تلك الأمة ، ثم مضى.

ومضت معهم سنة باقية وعلامة نبوية هادية ممن رباهم رسولنا فى جميع أحوالهم حتى الفتنة فكانوا نفوساً عاقلة راشدة، تخرج من كل فتنة مظلمة غبراء نسأل الله أن يهبنا نفوساً تعى الحق ، راشدة تعتزل الفتن، وتلوذ بالله، وتخرج من كل فتنة تعترضها ، غانمة راشدة بإذن الله...



نفوس عند الشهوة

الشهوات صراع دائم ومحل هذه الصراعات هى نفوسنا التى بين جنوبنا، وهذه النفوس دوما بين إرادتين:

١ـ إرادة الله:

فالله يريد لها أن تحيا حياة طيبة ملؤها الاستقامة والطهر، وأن تمضى على طريق الله تائبة مستغفرة لذنبها.

٢ ـ إرادة الشيطان:

الذى يريد أن تجنح النفس إلى الإثم وأن تعيش فى الخطيئة وأن تغترف من معين الشهوات...

وبينهما إرادة الانسان :

التى تحسم هذا الصراع حينما تقوى أو تضعف : ففى حال القوة تتوجه النفس إلى ربها وتنطلق فى رحاب النور. أما عند ضعف الإرادة الإيمانية فى الإنسان تضعف النفس وتميل كل الميل إلى الآثام و المعاصى.

﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا ﴾ النساء / ٢٧ .

فالانسان بين صديقين ، عبيد الشهوات الذين هم دعاة الرذيلة والاثم. وعباد الرحمن ، الذين هم الدعاة إلى الخير و الرشد. فالله يريد أن يتوب عليكم ، ويجعل الانسان نقيا تقيا طاهرا بارئا، أما الشيطان فانه يريد الفاحشة والرذيلة و الخطيئة ، ولكن من رحمة الله بعباده أن جعل الانتصار للنفس صاحبة الارادة المؤمنة وجعل الهزيمة كل الهزيمة للارادة ضعيفة الإيمان . إذن فهى مواجهة صريحة بين ارادة الله وبين الذين يتبعون الشهوات...تخرج من خلالها النفوس إما منتصرة قوية تقوى دعائم المجتمع المسلم وإما خاسرة كسيرة تحقق غاية الذين يتبعون الشهوات ، من رد المجتمع المسلم إلى الجاهلية خاصة فى نظام الأخلاق ، وهذا الأمر ما يصنعه اليوم أصحاب الأقلام الهابطة و النفوس الخاوية لتدمير ما تبقى من خلق لدى الناس ... ولا مواجهة لهذه الهجمة الخبيثة إلا بمنهج الله القويم ... وهو ما يقوم بإقراره ركب المؤمنين الموصول إن شاء الله ...

خطر الشهوة:

لا تطغى الشهوة فى المجتمع إلا إذا تخلى عن أصول الإيمان ونحى دين الله بعيدا عن الحياة ... فحينما تخلى قوم لوط عن منهج الله طغت فيهم الشهوة فى أحط صورها ... وعندما تخلى قوم نوح عن منهج الله طغت فيهم شهوة الحرص على الحياة:

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ هود / ٤٣ ، ... وعندما تخلى قوم شعيب عن منهج الله تفشت فيهم شهوة الحرص على المال و العمل على زيادته بالبخس والنهب و السلب ... وهكذا فلم يكن رفضهم الإيمان إلا لحلاوة الشهوة الزائغة التى أحاطت بهم من كل جانب.

ولم يكن عقاب الله لهذه الشهوات بالصيحة والغرق وجعل عالى القرية سافلها عقابا وانتهى ليتعظ الناس، وإنما كان عقابا ممتدا ودرسا مستمرا مكررا :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ طه / ١٢٤ .

وما يحدث اليوم فى مجتمعات الأرض التى شردت عن المنهج من عقاب لأفصح بيان لهذه الحقيقة : ففى فرنسا : يقول طبيب يدعى ليريه: أنه يموت فى فرنسا ثلاثون ألف نسمة بالزهرى ، ثم تكمن الخطورة وراء سهولة تلبية الميل الجنسى وفوضى العلاقات و التخلص من الأجنة من تدهور وعدم استقرار الأسر وعدم القدرة على الزواج .

ويقول أبو الاعلى المودودى فى كتابه الحجاب :

(سبعة أو ثمانية فى الألف هو معدل الرجال و النساء الذين يتزوجون فى فرنسا اليوم) .

ويقول عميد كلية فى باريس : (إن عامة الشباب يريدون بعقد النكاح استخدام بغى فى بيوتهم أيضا) .

وناهيك عما يحدث فى السويد تحت ستار « حرية الحب»

تقول إحدى الاحصائيات : أن ٩٥ فى المائة من الشبان فى سن ٢١ سنة لهم علاقات جنسية .

وتفصيل ذلك : ٧ فى المائة مع خطيبات ، ٣٥ فى المائة مع حبيبات ، ٨٥ فى المائة مع صديقات عابرات .

وتقول الأبحاث العلمية أن ٨٠ فى المائة من نساء السويد مارسن علاقات جنسية قبل الزواج .

والحال فى أمريكا لا تقل على هذه الحال ، فقد أعلن رئيس الولايات المتحدة أن ستة من كل سبعة شباب فى أمريكا لم يعودوا يصلحون للجندية بسبب الانحلال الخلقى الذى يعيشون فيه.

أما انجلترا فيكفى ما كتبه أحد القضاة :

« أنه من كل حالتى زواج تعرض قضية طلاق» هذا طرف مما تتكلفه البشرية الضالة ، فى جاهليتها الحديثة ، من جراء طاعتها للذين يتبعون الشهوات ولا يريدون أن يفيئوا إلى منهج الله للحياة ، حيث يريد الله لهم الهداية والحماية من الشهوات والوصول بهم إلى التوبة و الصلاح و الطهارة.

سبيل النجاة من الشهوة :

* أن يعلم الانسان المسلم أن السعادة لن تكون فى مال يكتنزه ولا أرض يملكها ولا امراة ينكحها ، ولا سلطان يصل إليه ، ومن هنا كان نداء الله العظيم لرسوله الكريم :

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ طه / ١٣١ .

فالسعادة الحقيقية بالحياة مع الوحى والعيش مع القرآن والصلة بالله بصلاة خاشعة يتأثر القلب بها ، بركعات فى جوف الليل ونفس سوية لا تحمل فى صدرها شيئا لأحد.

* وأن يكون المسلم على خجل من ربه ، وحياء عند أصغر الذنوب ، ولا يصل به الذنب إلى اليأس قط فإن أبواب الله مفتحة أمامه ، ثم بعد ذلك الندم الحزين فإن الندم توبة كما قيل ، وكيف تسلب عنه التوبة مع شدة ندمه على الذنب ، ولومه نفسه عليه ؟ ولا سيما ما يتبع ذلك من بكاء وحزن وخوف ، وبعد ذلك يعاود الإتصال بربه دون تباطؤ أو تلكؤ، أما هؤلاء المجاهرون بالمعصية ويفخرون بها فهم على خطر عظيم لقول رسول الله ﷺ :

« كل آمتى معافى إلا المجاهرون ».

يبيتون يسترهم الله وهم ينهكون أنفسهم من عدم الخشية، وإنه لمن العجب حقاً أن نرى الذين يتبعون الشهوات يجاهرون بها فى بهجة وسرور ، غافلين أن تكاثر الذنوب على القلب تتحول إلى غطاء سميك يحجب نور الله ، يقول الله تعالى :

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ المطففين/ ١٤ ، أى غطت الذنوب على القلوب فاحتجبت عن النور.

عباد الرحمن :

ضرب اللــه المثــل بصفات هــذه النفوس حينمـا تحدث فى القرآن الكريم عـن صفات عباد الرحمن يقول الله تعالـى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ الفرقان / ٦٣ : ٦٤ . فبين الله نهارهم وليلهم.

* **فنهارهم** : فى مشية سهلة هينة، ليس فيها تكلف ولا تصنع ، وليس فيها خيلاء ولا تنفخ ، فنفوسهم السوية ظهرت فى شخصيتهم بالوقار والسكينة مع الجد و القوة ، فلم تعرف مشيتهم التداعى والتهاوى فى التبيان لاظهار الصلاح والتقوى ، وإنما كانوا كقدوتهم رسول الله ﷺ فيما يحدثنا به أبو هريرة :

« ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ كأن الشمس تجرى فى وجهه ، وما رأيت أحداً أسرع فى مشيته من رسول الله ﷺ كأنما الأرض تطوى له وإنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث» .

وهم مع وقارهم لا يلتفتون إلى حماقة الحمقى وسفه السفهاء ، ولا يشغلون بالهم ووقتهم وجهدهم بالاشتباك مع السفهاء و الحمقى فى جدل أو عراك ، إنهم يترفعون عن المهاترات الطائشة : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾.

* **أما ليلهم** : فهو التقوى ومراقبة الله و الشعور بجلاله والخوف من عذابه.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ الفرقان ٦٤ : ٦٥ . ينام الناس وهم قائمون ساجدون ويخلد الناس إلى الأرض وهم يتطلعــون إلى عرش الرحمن ، ذى الجلال والإكرام ، وهم فى قيامهم وسجودهم تمتلئ قلوبهم بالتقوى و الخوف من عذاب جهنم.. هذا الخوف الذى هو ثمرة الإيمان العميق ، وثمرة التصديق.

* **طبعهم الاعتدال و التوازن :**

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ الفرقان/ ٦٧ . وهذه سمة الإسلام فى بناء النفوس على التوازن و الاعتدال، ليس فى المال فحسب ولكن فى جميع أمور الحياة ، فجعل الإسلام الاعتدال سمة من سمات الإيمان : ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ .

*** تتجلى من خلال العرض القرآنى أهم صفاتهم:**

١ ـ العبودية لله.
٢ ـ التواضع.
٣ ـ الحياء.
٤ـ إيثار السلام.
٥ ـ إخلاص العبادة لله.

فإن العبودية الكاملة لا تكون لله إلا إذا تحقق التحرر الكامل فى داخل النفس، فعباد الرحمن هم الذين يستمدون العون من الله وحده. ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ البقرة / ٢٨٢ .

* ويعيشون دوماً يستمدون العون من الله، وهم الذين يعيشون لربهم ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الأنعام / ١٦٢ .

ثم هم الذين يعيشون كلهم لله ويرجعون الأمر إلى الله، وفى حال النصر يتواضعون : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ... ﴾ النحل / ٥٣ .

ويمضى عباد الرحمن يواجهون الشهوة فى معركة ضارية، فكأنهم بين البشرية ريح رخاء وروح وريحان: ﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴾ (الفرقان : ٧٥).

نفوس عند الشهوة :

* روى البخارى : أن المسلمين لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ... فقال: سعد لعبد الرحمن : إنى أكثر الأنصار مالاً، فأقسم مالى نصفين، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك . فسمها لى أطلقها، فاذا انقضت عدتها فتزوجها...

قال عبد الرحمن :

بارك الله فى أهلك ومالك ؟

أين سوقكم ؟؟

أى ارتفاع إذن كانوا فوق الشهوات فلم يعرفوها ولم تعرفهم ويزاحم عبد الرحمن اليهود فى سوق قينقاع، ويكسب بعد أيام قليلة ما يعف به نفسه ويحصن به فرجه حينما يسوق إلى زوجه نواة من الذهب...

* وما يسمع حنظلة بن أبى عامر هواتف الحرب، إلا ويهرع للنضال فكان حادى التضحية أملك لنفسه وأملأ لحسه من داعى اللذة، فقد كان حديث عهد بعرس،

فانخلع من أحضان زوجته وأسرع إلى ساحة الوغى حتى لا يفوته الجهاد ، فاستشهد البطل وهو جنب ... وذهب ملقبا فى الإسلام بغسيل الملائكة...

* وبعد الفتح أسلم فضالة بن عمير وكانت له هنات فى جاهليته مع النساء فمر بامرأة لها معه شأن فلما رأته قالت :

هلم الى الحديث .

فانبعث يقول :

قالت : هلم الى الحديث فقلت لا
يأبى عليك الله و الإسلام
لو أن رأيت محمدا وقبيله
بالفتح يوم تكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيننا
والشرك يغشى وجهه الإظلام

* وبعد حنين توزع الغنائم والأموال فأقبل رؤساء القبائل وأولو التهمة يتسابقون إلى أخذ ما يمكن أخذه وشاع فى الناس أن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفقر...فازدحموا عليه يبغون المزيد من المال ، وأكب الأعراب عليه يقولون : يا رسول الله أقسم علينا فيئنا، حتى اضطروه الى شجرة فانتزعت رداءه فقال:

«يا أيها الناس ، ردوا على ردائى ، فوالذى نفسى بيده لو كان لكم عندى عدد شجر تهامة نعما لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتمونى بخيلا ولا جبانا ولا كذابا» وكادت أعين الناس تخرج من محاجرهم تطلعا الى الدنيا . زينتها ..

لقد كانوا منذ لحظات هم الفارون من الميدان ، فما بالهم عند شهوة المال قد تجمعوا واصطفوا.

وحرم الانصار من هذه الغنائم ، وهم الذين نودوا وقت الشدة فطاروا يقاتلون مع رسول الله ﷺ . حتى تبدل الفرار انتصارا وهاهم يرون أيدى الفارين تعود بالغنائم ملأى .

ويمشى سعد بن عبادة زعيم الأنصار يقول القوم : لقى والله رسول الله قومه...

ويسأله الرسول : فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال : ما أنا الا امرؤ من قومى .
فيأمره الرسول بجمع القوم ويخطب فيهم قائلا: « يا معشر الأنصار ألم آتكم ضلالا فهداكم الله وعالا فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟؟؟ قالوا : بلى قال: ألا تجيبون يا معشر الأنصار ؟ قالوا المن لله ورسوله قال: والله لو شئتم لقلتم

فصدقتم وصدقتم : جئتنا طريدا فآويناك وعائلا فآسيناك وخائفا فأمناك، وخذولا فنصرناك : فقالوا المن لله ورسوله.

فقال : أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذى نفسى بيده لو أن الناس سلكوا شعبا وسلكت الأنصار شعبا ، لسلكت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار.

اللهم أرحم الأنصار ، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار .فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا :

رضيا بالله ربا، ورسوله قسما ثم انصرف فتفرقوا...

تفرقوا لتجتمع لنا صورة هذه النماذج البشرية الفريدة رجال عقيدة بحق ... قامت على تضحياتهم الرسالة بتجردهم ، وعلوهم على الشهوة فلهم الجزاء الأوفى من الله .



نفوس عند المعصية
(نفوس تخطأ ورب غفور)

الحرية الحقيقية:

* اذا تحررت النفس من داخلها حررت الحياة من حولها لأن الحرية كل لا يتجزأ ، وبهذا التصور فإن المؤمنين الصادقين هم الأحرار الحقيقيون وعلى مدار التاريخ واجه العلماء الشر حينما تحررت أنفسهم ، وذلك لأنهم ملح الأمة، واذا فسد الملح فما الذى يصلحه؟ ويتمثل الغزالى هذا البيت:

يا معشر العلماء يا ملح البلد

ما يصلح الملح إذا الملح فسد

وعند هذه الحرية أقيم المعوج من أمور الأمة ، هذا عمر بن الخطاب يقول يوما على منبره : أيها الناس من رأى منكم فىّ اعوجاجا فليقومه . فيجيبه أحدهم : لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا، فلا يزيد أن يقول :

الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد من يقوم اعوجاج عمر بسيفه.

* فعندما يتحرر الإنسان من داخله ويتخلص من ضغط المعصية يصبح عبدا لله فهو القائل في كل يوم وليلة:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة / ٥ .

وبهذا الانتصار على المعصية يواجه المسلم الحياة حراً ، حاكماً أو محكوماً فيعود للمجتمع المسلم إشراقه وبهاؤه ، وكفى أن الله يمجد هذا الانتصار بأن يستخلصه ويصنعه صنعاً ويترقى بسلوكه فى القرب منه سبحانه حتى يحبه ، وما كان عطاء ربك محظوراً .

عن أنس رضي الله عنه عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال :

« إذا تقرب العبد إلىّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإذا تقرب إلىّ ذراعاً تقربت منه باعاً، وإذا أتانى يمشى أتيته هرولة» (البخارى) .

ويقول رسول الله ﷺ :

« إن الله تعالى قال: من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب...

وما تقرب إلىّ عبدى بشئ أحب إلىّ مما افترضت عليه..

وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه..

فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ...

ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » البخارى.

بين الطاعة والمعصية :

الطاعة هى غذاء الإيمان . فينمو ويزدهر ويهتز، كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه.

وحياة الطاعة هى حياة النقاء ، ولذلك كان من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله « وشاب نشأ فى عبادة الله».

أى فى الطاعة ودوام عليها واستمر فى حياتها ، أما المعصية فهى السم القاتل الذى يخنق الإيمان ويدمره فإذا نبته وزهره يختفى ، وإذا ثمره يفسد ، وما يزال العبد فى الخطيئة و السير على طريق الشيطان فى المعصية حتى تغيب شمس إيمانه ... ثم يضيع إيمانه ويذهب يقينه .. فيهلك.

أما الصالحون فحالهم تعرض لهم الخطايا فى طريق الإيمان كهفوات عارضة سرعان ما ينهضون إلى محيط الطهر ليغتسلوا فينشطوا فى خفة ، يقول تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

*** (طائف من الشيطان) :**

فهى عارضة خفيفة لأن الصالحين سرعان ما يندمون ويتعاهدون مع الله على عدم العودة لمثلها وذلك شأن المتقين، فما للشيطان على المتقين من سبيل.

*** (فإذا هم مبصرون) :**

فسرعان ما تنكشف الحجب عن القلب وسرعان ما يتنبه كذلك للخطر ، فلا بأس بأن يكبو الإنسان ثم ينهض منها سريعاً فلا ينبغى له إذا زل مثلاً زلة خفيفة أن يتوقف عندها ويتجمد بل يتجاوزها سريعاً لاستئناف سيره إلى الله.

وهكذا القرآن يفتح أمام هذا الشخص الطريق إلى ربه ليسعى إليه خفيفاً نشيطاً ويقوده برفق وأناة حتى يجتاز الزلة، فإن مس الشيطان عمى ، وإن تذكر الله إبصار، وإن مس الشيطان ظلمة، وإن الاتجاه إلى الله هو النور... .

موقف العبد المخطئ :

*وكما جرت عادة الناس بأن يعتذر المخطئ لمن أساء إليه فيقبل اعتذاره .. فما

أجدر أن يبادر الخطاءون بالتوبة إلى ربهم وما أقبح أن تتراكم العثرات فلا تمحوها توبات..

* وكلما كان الوقوف على باب الله وأعتابه أطول كان أرجى لقبوله يقول الشاعر:

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته

ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

* أمام هذه الوقفة الذليلة يرحم الله العبد ويجبر الضعف ويقول لصاحبها :

« أخطأ عبدى وعلم أن له رباً يغفر الذنب أعمل ما شئت فقد غفرت لك».

* وهنا ينتصر العبد على المعصية و الشيطان ، حينما تفتح أمامه أبواب الأمل فى عفو الله وصفحه فلا تذل له هامة ، وما ينبغى أن تذل هامة أو تنحنى قامة ولنا رب صفوح غفور...

يقول تعالى: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ...** ﴾ الزمر / ٥٣ : ٥٤ .

* ﴿ **الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ** ﴾.

أليس هم الذين أكثروا الذنوب والآثام.

هل يترك هؤلاء صرعى الخطايا و المعاصى؟.

أم أن هناك علاجاً لهبوطهم؟

* ﴿ **لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ** ﴾

إنها الرحمة وفتح أبواب الأمل فرحمة الله أوسع من هذه الذنوب ، متى خلصت النية واستشعر المخطئ الأسى على ما فرط فى جنب الله .. وإنها الدعوة للأوبة ودعوة العصاة المسرفين الشاردين ، دعوتهم إلى الأمل و الرجاء و الثقة بعفو الله...

* ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾

أى نداء رطيب ذلك النداء ، فما أروع هذا الباب الذى لا يمنع داخلاً والذى لا يحتاج إلى استئذان ، الإنابة و الإسلام هذا هو كل شئ ، بلا طقوس ولا مراسم ولا حواجز ولا وسطاء ولا شفعاء.

إن الله يطلب منهم سرعة العودة إلى رحابه قبل أن يجندهم الشيطان .. سبحان الله ... يطلب العصاه قبل أن يطلبوه ويمد إليهم يده قبل أن يسألوه .. وكما قيل: « يتحبب إليهم بالنعمة وهو الغنى عنهم، ويتبغضون إليه بالمعاصى وهم أفقر شئ

إليه ، خيره إليهم نازل وشرهم إليه صاعد ، من أقبل على الله منهم ناداه من بعيد ، ومن أعرض عنه ناداه من قريب ».

* ومن الخبير العليم بحال الإنسان وضعفه وعمل الشيطان وكيده جاءت هذه الكلمات لتقود النفس من كبوة المعصية وتستأنف بصاحبها السير بعد القعود .. نشيطاً، خفيفاً ، سعيداً، فرحاً.

(١) أسرفوا .

(٢) لا تقنطوا.

(٣) إن الله لا يغفر الذنوب جميعاً.

* يروى الإمام ابن كثير فى سبب نزول هذه الآية:

أن رجلاً جاء إلى رسول الله فقال:

«إنى رجل كثير الغدرات و الفجرات فهل لى من توبة؟ فسكت رسول الله حتى نزلت هذه الآية ثم قال له:

ألست تشهد أن لا إله إلا الله؟

قال: بلى وأشهد أنك رسول الله.

فقال له الرسول الكريم :

قد غفرت لك غدراتك وفجراتك...

ثم يعلق الإمام ابن كثير:

« هذه دعوة لجميع العصاة إلى التوبة و الإنابة» فهل يستطيع أحد أن يغلق أبواب الله المفتحة...؟؟

ولكن هل جميع العصاة يعودون ويتوبون إلى الله ؟ .. فالنفوس لها أحوال عند التوبة وليكن ذلك موضوعنا اللاحق إن شاء الله...



نفوس عند التوبة

وتنقسم إلى :

١ ـ نفوس تجاهر بالمعصية فهم على خطر شديد لقوله ﷺ : « كل أمتى معافى إلا المجاهرون » فكما أن الله غافر الذنب وقابل التوب فهو شديد العقاب لقوله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ (الحجر : ٤٩، ٥٠) .

٢ـ نفوس تتوب ثم ترجع إلى الذنب ثم تتوب وهكذا ..فهؤلاء إن كانوا مصرين على المعصية مع التوبة ، فإن هذه التوبة مرفوضة لأن شرطها الإقلاع عن الذنب، والعزم على ألا يعود إليه ..فهم كالمستهزءون بربهم و الفرق واضحا بينهم وبين من يحقق شروط التوبة الثلاثة:

* ١ـ الندم.
* ٢ـ الإقلاع عن الذنب.
* ٣ـ العزم على عدم العودة إليه.

يقول ابن القيم (المدراج ١ : ١٨٢) : « فحينئذ يرجع إلى العبودية التى خلق لها ، وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة»

٣ـ نفوس تؤخر التوبة حتى يأتيها الموت ثم تحاول أن تتوب مع الاحتضار لكن هيهات .. فهذه توبة مرفوضة.. لقوله ﷺ:

« تقبل توبة العبد مالم يغرغر»أى يحتضر ويعالج سكرات الموت ..

يقول تعالى:

(أ) ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ
فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾
وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ
حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ
وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ (النساء : ١٧، ١٨) .

(ب) ﴿ ... كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ
أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ
فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤)
وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾. (الأنعام : ٥٤،٥٥) .
وقفات مع التوبة:

وأمام هذه الآيات الكريمات نقف وقفات مع التوبة:

١ـ ﴿بِجَهَالَةٍ ﴾

أي بطيش واندفاع وهى هنا جهالة العمل وإن كان عالماً بالتحريم، وكل من عصى الله فهو جاهل. فهى إذن زلة عارضة طارئة لم يرتب أمرها وضد الجهالة الروية وعندما تقع المعصية بروية يعنى ذلك الترتيب و الاستعداد وتمكنها من نفس صاحبها ، ويكون فى هذه الحال ليس بجهالة بل هو أصيل وقبول التوبة عن الأول يرجى أما الثانى : فهو مرتبط بفضل الله إن شاء قبل وإن شاء رفض.

٢ـ ﴿ ثم يتوبون من قريب ﴾

﴿ ثم تاب من بعده ﴾...

فالتوبة المقبولة هى التى لا تسويف فيها ولا تأخير بل تكون عن قرب لأنه يدل على الحياء ورقة الشعور أما التسويف فهو يدل على الغفلة و الغلظة، يقول ابن القيم : « إن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور ولا يجوز تأخيرها ، فمتى أخرها عصى بالتأخير ، فإذا تاب من الذنب بقى عليه توبة أخرى وهى توبته من تأخير التوبة».

٣ـ ﴿ وكان الله عليما حكيماً ﴾..

هو بمثابة إنذار موجه إلى العباد بأن يجعلوا توبتهم مخلصة صادقة لأنهم أمام رب عليم ببواطنهم دخيلة أنفسهم ، حكيم لا يعطى حكمته جزافاً، بل لمن أقبل عليه بصدق وإخلاص.

٤ـ ﴿ ... وَأَصْلَحَ ﴾..

عد العلماء أن من شروط التوبة أن تستقيم حياة التائب بعد التوبة وأن يمارس الصلاح فى الحياة.. أى بعد التوبة تغيير فى حياة التائب من الإفساد إلى الصلاح ..

إنها توبة عملية يترجم فيها القول إلى عمل وممارسة أما التوبة النظرية وإن تشدقت بها الألسنة آناء الليل و أطراف النهار فما هى إلا كلام ولا صلة لها بالقبول . ومع الرفض الصريح لتوبة المسوفين حتى الممات لأنهم لم ينتهزوا الفرصة فى

حينها ، وذلك لأنهم قد غرقوا في بحر الشهوات و الخطايا، جاء شرط الإصلاح وأن يكون التائب خيراً مما كان قبلها ، وذلك حتى لا يزال الخوف مصاحباً له ، لأنه لا يأمن مكر الله طرفة عين ، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه :

﴿ أن لا تخافوا ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾

فهناك فقط يزول الخوف ، فلا يزال التائب في كسرة وذلة وخضوع حتى يشتد من الله قرباً وعن المعصية وجوها بعداً.

* وقفات أخرى:

يقول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً
أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ
ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ
وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ
وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران:١٣٥) .

*﴿ فَاحِشَةً ...﴾ هي الذنب الغليظ البشع ومع هذا فإن التوبة النصوح تغفرها.

*﴿ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾

أليس هذا قبس من رحمة الله بنا فهو سبحانه يغضب علينا حين نظلم أنفسنا، فسبحان الله .. فالله أرحم بنا من أنفسنا .. نظلم أنفسنا فيغضب ربنا و يعاقبنا ... وننصفها فيرضى عنا ويثيبنا، كما يقول الأب الشفوق لولده : لا تعبث حتى أحبك .. وهو سبحانه أرحم بنا من الوالدة على ولدها.

*﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾

دليل على يقظة قلوبهم وحيائهم فهم بمجرد صدور الخطيئة يتذكرون الله، فما زالت شعلة الإيمان تضئ قلوبهم ، فيذكرون ربهم على الفور.

*﴿ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾

والفاء تفيد الإسراع في التوبة وتؤكد أن ضمائرهم حية وأن شعورهم رقيق فإنهم يدركون بشاعة المعصية وألمها فيحبون مغفرتها وسترها.

*﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا ﴾

فالفاحشة طارئة عليهم ، لا يفتأون ينبذونها بعيداً عنهم، وبعدم الإصرار يتحقق شرط التوبة ، فإن الإصرار هو الاستقرار على المخالفة وذلك كما يقول الإمام ابن القيم ذنب آخر لعله أعظم من الذنب الأول بكثير وهذا من عقوبة الذنب أنه يوجب

ذنباً أكبر منه ثم الثاني ثم الثالث حتى يستحكم الهلاك.

❊﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

فشرط المؤاخذة هو علمهم بالحرام فمن مارس حراماً وهو لم يعلم به فلا تثريب عليه ، رحمة من الله وفضل ، ولكن اليوم وقد اتضح « الحلال بين والحرام بين» ، فقد تحقق العلم به فلا مجال هنا لك من الهروب من التوبة وتحقيق شروطها.

❊❊ وأخيراً :

عجباً من هؤلاء الذين رأوا ذلك ولم يتوبوا بعد أن قال الله :

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ
وَآمَنَ
وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا
فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفرقان: ٧٠) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما :

« ما رأيت النبى ﷺ فرحاً بشئ قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت ».



التائبون

التوبة المقبولة دائماً ما يصاحبها الذل و الانكسار ، والله سبحانه أقرب ما يكون إلى عبده عند ذله ، وانكسار قلبه، كما فى الأثر:

« يا رب أين أجدك ؟ قال: عند المنكسرة قلوبهم من أجلى»

ولأجل هذا كان : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»

لأنه مقام ذل وانكسار بين يدى ربه.

* ولنا فى قدوتنا ﷺ خير الأسوة فهو المؤيد بالوحى ، الذى لا ينطق عن الهوى ، المعصوم من الخطأ، الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، كان لا يفتأ يستغفر ربه ويقول :

«يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة ».

* ومنذ أن خلق الله الأرض ، وكلف فيها الإنسان بمهمته واستخلفه فى الأرض... وبرزت قصة الصراع بين الشيطان و الإنسان ، وإنها معركة بين عهد الله وغواية الإنسان ... ومن خلالها برزت الفكرة عن التوبة حينما ينسى آدم عهده ويضعف أمام الغواية ... ويصرح الله بقضائه بنزول آدم إلى الأرض...

وكادت المعركة بين الإنسان و الشيطان أن تكون لآخر الزمان دون توبة، لولا قيام آدم عليه السلام من عثرته و توبته بعد خطيئته ، فأدرك الإنسان رحمة الله الواسعة.

﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة : ٣٧).

وفتح باب لا يغلق أمام التائبين من أخطائهم ، ومضت فكرة الإسلام عن التوبة، فالخطيئة مفروضة على الإنسان قبل مولده ، فخطيئة آدم شخصية والخلاص منها بالتوبة المباشرة فى يسر وبساطة ، وخطيئة كل ولد من أولاده مثلها، و الطريق مفتوح للتوبة فى كامل اليسر و البساطة ، تصور مريح وصريح يحمل كل إنسان وزره:

﴿ إن الله تواب رحيم ﴾ (الظلال الجزء الأول : ص ٦١).

* وهذا أبو لبابة و توبته المشهورة التى شهدها الله من السماء و الرسول ﷺ على الأرض ، حينما أخطأ يقول : فوالله ما زالت قدماى عن مكانهما حتى عرفت أنى خنت الله ورسوله وفيه نزل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ

وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٧) .

ولقد حزن الرجل على موقفه فربط نفسه فى سارية المسجد لا يأكل ولا يشرب حتى يموت أو يتوب الله عليه وظل ست ليال على هذا الحال لا يفك نفسه الا ليصلى ثم يربطها من جديد..

ثم نزلت توبته من السماء .. لأنها زلة نفس، صاحبها خزى، وأعقبها ندم ، فذهب الرسول ﷺ إليه وهو خارج لصلاة الصبح ، وفك وثاقه وبشره ، وتلا عليه الآية: ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ...﴾ (التوبة:١٠٢) .

* وذهبت توبة الثلاثة الذين تخلفوا عن تبوك ، يضرب بها المثل كلما تحدث متحدث عن التائبين : فقد كان أمرهم موكولاً إلى الله ، لم يعلموه ولم يعلمه الناس بعد ، وهم : مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية، الذين قعدوا عن غزوة تبوك ، كسلا وميلاً إلى الدعة والظل ، فى حر الهاجرة.

وهذا كعب بن مالك يروى ما حدث له حينما تخلف بلا عذر ، وبعد أن جاء بضع وثمانون رجلاً بأعذارهم فاستغفر لهم الرسول ، ووكل سرائرهم إلى الله ، حتى جاء كعب : قال رسول الله ﷺ : ما خلفك ؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك؟ ... فقلت:

يارسول الله والله لوجلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلاً، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عنى به ليوشكن الله أن يسخطك علىّ، ولئن حدثتك بحديث صدق تجد علىّ فيه ،وإنى لأرجو فيه عقبى من الله ، والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك.

فقال ﷺ : « أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك» فقمت.

ثم نهى رسول الله ﷺ عن كلام الثلاثة ، فاجتنبهم الناس، وتغيروا لهم ، حتى تنكرت لهم فى نفوسهم الأرض ، وأمرهم الرسول باعتزال زوجاتهم ، وظلوا خمسين يوماً يصلون الفجر على ظهر بيوتهم... حتى جاءتهم البشرى بعد بكاء شديد ونترك كعب بن مالك يروى لنا ما حدث يقول:

« فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله منا ، قد ضاقت علىّ نفسى ، وضاقت علىّ الأرض بما رحبت، سمعت صارخاً : يا كعب بن مالك أبشر ... فخررت ساجداً وعرفت أنه قد جاء الفرج ، فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى

الفـجر ، فـذهب الـناس يبشـروننا » . ويمضى راكـضـاً فى الطريـق، تهنئه أفـواج من المسلمين بالتوبة قـائلة: ليهنئك .. توبة الله عليك .. حتى يهنئه الرسول ، وقد استدار وجهه قمراً من شدة السرور قائلاً :

« أبشر بخير يوم مر عليك ، منذ ولدتك أمك » .

لقـولـــه تعـالـــى : ﴿ .... . ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (التوبـــة : ١١٨) .



نداء إلى النفوس

*وبعد أن تكشف حقائق النفوس كما عرضها القرآن وبينتها السيرة...

لنا أن نسأل أنفسنا ؟ أى نوع من هذه النفوس يا ترى ما نحمل من مشاعر وأحاسيس وعمل وحركة وقول وفعل؟.

فهلا نظر كل منا يتفحص نفسه ليقوّم المعوج منها ويثبت على الصالح فيها بل ينميه ويتعهده بالرعاية...

إن قضية التغيير المنشودة والتى يسعى إليها صالحو الأمة دوما هى من النفس تبدأ...

إن تغيير هذه الجاهليات فى الطباع و الأخلاق و الشرائع و النظم و العادات و التقاليد على مستوى الأفراد و المجتمعات لن يتحول ولن يتبدل إلى استئناف الإسلام إلا حينما تقوم نفوس كبيرة تتمثل فيها صفات القرآن وأفعال الصالحين الأتقياء المجاهدين ... فتحيا من جديد على طريق الإسلام ضمائر كضمائر الأوائل السابقين ... يعيدون المجد الضائع ويعيدون للأمة وجهها المشرق الوضاء ويزيلون عبوس الأيام من تباطؤ الرجال وخواء النفوس.

* هذه النفوس لابد وهى تتحرك أن تنظر دوما إلى الآخرة ... فهى الحياة الحقيقية فلها تسعى وتتحرك وتعمل وتنشط فتحرك الآخرة فى داخلهم حياة الإسلام ، فيحيون فى أوساطهم مجتمعا مسلما يبشر بقدوم الدولة المرتقبة...

فمنذ أن هاجت الريح على اللحى البيضاء المعلقة على أعمدة الكهرباء فى شوارع تركيا بأمر أتاتورك إيذانا بسقوط الخلافة الإسلامية و المسلمون يتقلبون فى أخطاء تلو أخطاء ... ولكن قام للباطل حماة حق واجهوا الشر ، يحدوهم أمل وثقة ونظرة ثاقبة إلى الآخرة ، فنهضوا بلا إله إلا الله.... فتحملوا ما تحملوا فمنهم من قتل ، ومنهم من سجن ومنهم من نفى وشرد.

فقد ظن الباطل أنهم ينتهون بهذه الأساليب ، فقد نسى أن هذه النفوس تحيا وتتجدد وتنهض من حين إلى حين بإذن ربها ﴿.. وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ..﴾ المدثر / ٣١ .

* وكذلك على هذه النفوس وهى تؤثر الآخرة ألا تركن إلى الدنيا

فهـي داؤهـا وبها هلاكهـا وعليهـا أن تزهـد فى الدنيا فبمقدار الزهد فيها يكون الرقى والعلو عند الله وفى ميزانه... وأن تزهـد فيما عنـد النـاس ، فتزداد عندهم قبـولا، ممـا ييسر لها أن تقوم بمهمتها التى كلفها الله بها من دعـوة الناس إلـى الخـروج من الشـرود و الجاهليات إلى شاطئ ونور رب العالمين.

* وعلى هذه النفوس وهى تقوم بمهمتها فى الدعوة إلى الله و الجهاد فى سبيله والانطلاق بما تحمل من خير ، أن تنقل هذا الخير إلى قلوب الناس لتصل بربها ، بل تتعهدها بالسقاية حتى النماء والنضج ، فى جماعة متراصة قوية فلا يكون للشيطان عليها من سبيل.

* وعلى هذه النفوس كذلك ، أن تتعاون مع غيرها فى صورة عضوية متلاحمة منصهرة ، فلا يكونوا مجموعة نفوس بل نفسا واحدة ، فتلتقى على قلب واحد ، فهم واحد ، عقل واحد ، هدف واحد ، سبيل واحد ، لرب واحد . وبنظرة فاحصة إلى قاعدة الأرقام القائلة: (إن الأرقام كثيرة ، ولكنها بمفردها لا تنفع ، ولا يتحقق بها نفع إلا حينما تتجمع وفق قانون دقيق لتأتى لنا بنتيجة صائبة) .

فالمسلمون كذلك ، متفرقون لا يصنعون هدفا ولا تتحقق بهم نتيجة، وإن قيام الإسلام واستئنافه والعودة بالخلافة المفقودة لهدف عظيم ولا يتحقق إلا بنتيجة هى عينها نتيجة الأرقام المتفرقة حينما تتجمع وفق قانون دقيق بنظام أدق فتحقق بذلك هدفا مدروسا.

فان أراد هذا الجيل أن يستأنف الدين من جديد، فليتجه إلى نفسه يبدأ عندها ، مؤثرا الآخرة ،غير عابئ بالدنيا، قائما بمهمته، فحسبه الجنة الطيبة، فى أى مكان ما دام على الحق ثابتا وفى الصف عاملا ومع المؤمنين وركبهم الموصول متمسكا.

فابدأ أخى القارئ..

محاولاً .. مجاهداً .. قائداً لنفسك..

وأعلم أنك كلما ارتقيت خطوة ارتقت الأمة خطوات.

فنفس الأمة تحيا بنفوس العاملين...

ولئن تحقق ذلك ، فيالها من بشرى.

فقد فتح الطريق من جديد غضا حيا بالسالكين و السائرين.

معموراً بالمجاهدين بعد انقطاع ..

وعندها يهرب الشيطان بركبه..

وينهار الباطل بزيفه..

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .
ألا بنصر الله تطمئن القلوب.. إن نصره لقريب قريب.
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.



ثانياً : تربية النفوس

لماذا تربية النفوس ؟

* آه ... من النفوس كم أودت بالكثيرين فحرمتهم من أحلى حياة للإنسان على الأرض، حياة الطاعة والنقاء والطهارة!

* آه ... من النفوس كم ردّت الكثيرين عن إيمانهم فحرمتهم من أجمل علاقة فى الوجود، علاقتهم بالله رب العالمين!

* وهنيئاً لأصحاب النفوس الكبار الذين ضمنوا جنات عدن وقرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون.

والله من وراء القصد ،

١. تربية النفوس

يقــول تعالــى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ ﴾ الشمس / ٧ : ٨ ، ويقول تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝ ﴾ الشمس / ٩ : ١٠ ، وكان من دعائه ﷺ : « اللهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها». وفى نهاية ما كتبه عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص وجنده: (اسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم) .

* ولذلك كانت تربية النفوس هى سلوى المؤمنين ونجواهم فحافظوا على اللجوء إلى ربهم والذكر والعمل الصالح والاستئناس بالقرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ۝ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۝ ﴾ الحجر / ٩٧ : ٩٩ ، وليس الأمر فيما يعانيه الإنسان بل فى كل أموره، حتى دعاة الخير وهم يعملون، فقد جاء فى الأثر الإلهى (أوحى الله إلى عيسى بن مريم: يا عيسى عظ نفسك بحكمتى فإن انتفعت فعظ الناس وإلا فاستحِ منى) ، وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه لما كان يوم بدر قاتلت شيئاً من قتال ثم جئت إلى رسول الله ﷺ أنظر ما صنع، فجئت وإذا هو ساجد يقول: يا حى يا قيوم ، ثم رجعت إلى القتال ثم جئت، فإذا هو ساجد يقول ذلك، ففتح الله، وصار لنا فيه أسوة حسنة ﷺ من أراد الفتح فعليه بنفسه ولا ينسى تربيتها حتى ولو كان فى مواطن الجهاد.

* وقد تجنح النفس ببعض الناس إلى الأسى والهم والحزن لزوال تيسير أو فراق حبيب، وحتى لا تغوص فى بحور الوهم، فتربيتها هنا هو الإرتفاع بها إلى خالقها تستمد منه العون والقوة، فى حياة الصحابة ٣/ ٦٦٨ قصة عوف بن مالك الأشجعى حيث جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله إن ابنى أسره العدو وحزنت أمه فماذا تأمرنى؟ قال: آمرك وإياها أن تستكثرا من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقالت المرأة: نعم ما أمرك... فجعلا يكثران منها فتغفل عنه العدو فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه فنزلت: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ الطلاق / ٢ .

* فتربية النفوس هى صلاحها وإصلاحها، وهى طهارتها وتقويتها، وهى تزكيتها وجهادها، وهى تهذيبها وتقويتها، وهى ترقيتها ومجاهدتها، وجماع ذلك كله في قولهم: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا) مصداقاً لقوله تعالي ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ الحشر/ ١٨ ، وثمار تربية النفوس تراها فى الانتصار على الكربات والمكائد، تراها فى الثبات عند المحن والابتلاءات، تراها فى تحصيل الرزق والعلم، تراها فى فتح أبواب الإيمان والتقوى والمعرفة بالله تعالى، فإن من انتصر على نفسه كان على غيرها أقدر، ومن انتصر على نفسه أسس بنيانه على أصل ركين لا يأبه بعواصف ولا يتأثر بأعاصير . فالفلاح كل الفلاح فى تربية النفوس، يقول تعالى: ﴿ ... وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ التغابن / ١٦ .



٢. تصفية النفوس

قديماً قالوا: التخلية قبل التحلية، وصارت قاعدة فى التعامل مع النفوس، فلمَ لا تكون البداية بتصفية النفس من العيوب؟ سواء كانت فى مأكل أو مشرب أو ملَبس أو مركب أو مسكن أو كانت فى زيجات أو زينات أو متعات أو شهوات.

* وتبدأ تصفية النفوس بمعرفة العيوب، واكتشافها وإظهار عيوب الآخرين، فما أعظمها من مهمة أن يبحث كل منا عن عيوبه ليصفيها ويسعى فى التخلص منها، وهو أعلم الناس بها، لأنها واقع فى كيانه يراها فى حركته وسكنته، ويسمعها فى خفقته وجلوته، فلماذا نبحث عن عيوب غيرنا ونترك عيوبنا؟! وهذا أول الطريق فى التعامل مع النفوس. يقول تعالى: ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ القيامة/ ١٤ يقول قتادة فى تفسيرها: إن الإنسان شاهد على نفسه بصيراً بعيوب الناس وذنوبهم غافلاً عن ذنبه.

* قالوا: (إن الله يطالبك بالاستقامة ونفسك تطالبك بحظها، ولأن تكون بحق ربك أولى من أن تكون بحظ نفسك) ما أجمله من قول وما أعظمه من حل لهؤلاء الذين يتساءلون ويبثون شكواهم: مالنا نحاول المرات والمرات ويجرفنا حظ نفوسنا؟ إننا محجوبون عن الله، بعيدون عن ربنا!! هؤلاء واهمون، فلماذا هم واهمون؟ .

* والإجابة تقول: إنهم لم يستشعروا الحق سبحانه لأنه محال فى حق الله الحجاب فلا يحجبه شئ لأنه ظهر بكل شئ، وقبل كل شئ، وبعد كل شئ فلا ظاهر معه ولا موجود سواه، فهو ليس بمحجوب وليس ببعيد، وإنما المحجوب هو أنت بعيوبك، إن مجرد بث هذه الشكوى علامة على أن فى نفسك شيئاً فعليك إزالته وتصفيته. يقول تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ القيامة / ١ : ٢ ، يقول الحسن البصرى: المؤمن ما تراه إلا ويلوم نفسه، يقول: ما أردت بكلمتى، ما أردت بأكلتى، ما أردت بحديث نفسى، حتى أن ابن عباس رضي الله عنه أطلق عليها (النفس المذمومة) .

* وتصفية النفوس من العيوب مستمرة حتى تحصل على الفلاح ويتحقق فينا قوله تعالى فى سورة الأعلى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ تفتح أبواب الإتصال بالله،

باستشعارك لصفات الله عز وجل والطريق إلى ذلك كما قال ابن عطاء فى (لطائف المنن): «لا تكن ممن يطالب الله لنفسه ولكن ممن يطالب نفسه لربه» بمعنى المجاهدة الدائمة للنفس وحسابها، واليقظة لعيوبها وعلاجها حتى يؤيدك الله بتصفية عيوبك، ويوفقك إلى صلاحها، فعليك الاجتهاد وبالله التوفيق ما دام ذلك لربك، وعليك الاستمرار على ذلك والثبات على فعله ، فإن توقف تحقق لآمال طلبتها أو صلاح تنشده من الله، فليس ذلك استبطاء لمطلبك من ربك، وإنما استبطاءٌ لأدبك مع ربك، واجتهادك لنفسك، وعيب فى نفسك... ألا تتفق معى أن نقطة البداية هى تصفية النفوس من العيوب !.



٣. دواء النفوس

* دواء النفوس فى الشعور بالله، ولن يتحقق هذا الشعور إلا بالعبودية الكاملة لله والتى تبدأ من إعلانك الافتقار الدائم إلى الله، وهو الشعور المستمر بالله وليس عند العجز أو المرض أو الكوارث أو الأزمات أو غير ذلك، هو شعورك بحاجتك الدائمة إلى مولاك، وكلما ازداد الشعور بالفقر والعوز والحاجة زاد الشعور بالله، وهذا هو معنى تحققك بـ (لا حول ولا قوة إلا بالله) بمعنى:

لا حول عن معصية الله إلا بالله

ولا قـوة على طاعة الله إلا بالله

فلا حركة ولا سكون إلا بالله يقول تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ النازعات ٤٠ : ٤١ .

* وباستشعارك هذا المعنى العميق تكون أقرب إلى مولاك، وبذلك تتعرف على عيوبك وتتخلص منها، فبشرية الإنسان هو استشعاره بذاته وينسى افتقاره إلى ربه، فيظهر ذلك فى أخلاق تناقض خلوص العبودية من شهوة المأكل أو المشرب أو المنكح أو حب الدنيا أو المنصب أو غير ذلك من الشهوات، وكلها وهو لا يدرى تنقص من قدره وفق هذه القاعدة: (للنفس من النقائص ما لله من الكمالات) ولك أن تتأمل فيها وتتصور نقائص النفس.

* فإن تحرر من هذه الأخلاق كان عبداً خالصاً لمولاه ، ومن الأمور التى تفسد هذا الشعور بالله غلبة الهوى عليك، الذى يعمى ويصم، وقد قالوا:

- لا يخاف عليك التباس الهدى إنما يخاف عليك اتباع الهوى .
- لا يخاف عليك التباس الحق وإنما يخاف عليك جهالة الخلق: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ... ﴾ الأنعام/ ١١٦ .
- لا يخاف عليك من خفاء أهل الحق إنما يخاف عليك من قلة الصدق: ﴿ ... فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ محمد/ ٢١ . مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ... إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ النجم/ ٢٣ .

فلم يمنعهم من الهدى إلا حسن الظن بمسلك سابقيهم على الباطل ثم ما تهواه

أنفسهم من ملذات وشهوات وحظوظ.

* يقول أحدهم :

لا تتـــبع النفـس فى هـــواهـا

إن إتبـــاع الهـــوى هـــوان

فإذا أراد الله إذلال عبده ردّه إلى نفسه وهواه فأحيل عليها ووكل إليها، فالهوى كما رأيت مختصر من الهوان، ومن دعائه ﷺ : «إن تكلنى إلى نفسى تكلنى إلى ضعف وعوزة وذنب وخطيئة وإنى لا أثق إلا برحمتك». فبرحمته تعالى عزه عبده وعنايته به، فإذا تولاك أعطاك، ولم يتركك مع نفسك وهواك، هنالك تستشعر قربه وتتعرف على عيبك، بعنايته ورعايته وحفظه تعالى.



٤. عيوب النفس

مع هذه العيوب التى لا تتناهى فى الإنسان، دلّنا خبراء التربية بأصل هذه العيوب التى لا تتناهى فى الإنسان ، فإذا استطاع الإنسان علاج الأصل فلا وجود للروافد، ولذلك كانت القاعدة: (أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها) وقد سمى القرآن ذلك (فتنة النفوس) وذلك فى قوله تعالى: ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم ﴾ وكانت هذه الفتنة كما فى التفسير: بالانصياع لحظها والسير وراء ما تهوى والوقوع فيما حسنته من شهوات وملذات والرضا عن النفس هو استحسانك لأحوالها، وتغطيتك لمساويها، وكل من اتهم نفسه وأساء الظن بها، ونظر إليها بعين السخط، هو الذى بحث عن عيوبها واستخرج مساويها، يقول أبو حفص الحداد: (من لم يتهم نفسه على دوام الوقت ولم يخالفها فى جميع الأحوال، ولم يجرها إلى مكروهها فى سائر أيامه فهو مغرور، ومن نظر إليها بإستحسان شئ منها فقد أهلكها)، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه والله تعالى يقول: ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يوسف ٥٣ .

* وصورة من يرضى عن نفسه فى الحياة صورة مرفوضة فانقلاب الحقائق عنده تجعله يظن أنه وصل إلى الكمال فماذا يريد بعد ذلك؟ ومن نظرته إلى نفسه بأنه كامل تنقلب علاقته بالناس إلى علاقة كبر وعجب وغرور، وعلى الناس ألا يخالفوا له رأياً، بل عليهم الإقتداء به بالإجبار والأخذ عنه بالإكراه، ومن ثم تراه مستهيناً بالمعصية، مستهتراً بالذنب يتابع الشهوات من حب للمدح والتصدر والتعالى على الآخرين.

أما إذا أراد التخلص من شهواته فلابد أن يمتلك الشعور بالله ويستمر فى سلوك درب الطاعات وأول ذلك عدم الرضا عن نفسه.

* وعلى الإنسان حتى لا تتراكم عليه عيوبه أن يحذر من مصاحبة الذين يرضون عن أنفسهم، سواء كانوا أساتذة له أو أقراناً أو أتباعاً أو تلامذة فالمرء على دين خليله،

وبهذا الميزان الدقيق ينظر المرء من يصاحب حتى ولو كان صاحب علم أو مكانة، يقول سفيان بن عيينة: «إذا كان ليلى ليل سفيه ونهارى نهار جاهل فماذا أصنع بالعلم الذى أكتسب، وقد استعاذ النبى ﷺ من علم لا ينفع» .

ولذلك فمن أقوالهم المحفوظة فى ذلك: (من أراد أن يتخلص فليصحب من تخلص) وصحبة من يرضى عن نفسه شر محض ولو كان أعلم أهل الأرض، لأن الطباع تسرق الطباع، والجهل الذى يقربك إلى الله أحسن من العلم الذى يبعدك عن الله، ومن عرف (أصل العيوب) تطلب ذلك منه سعياً وتشميراً ليسلك طريق اليقظة والطاعة، وكان من وصية أستاذ لتلميذه وهو يعلمه هذه الحقيقة: (يا بنى كن عين المعنى وإلا فاتك المعنى) .



٥. مجاهدة النفوس

* من أجل صحة الأعمال ليتقبلها الله تعالى، ثم يجعل الجزاء العميم عليها فى الآخرة، تدوم مجاهدة النفوس فلا يضع الصالحون في أذهانهم وهو يعملون إلا أمر الآخرة، يقول تعالى: ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ السجدة/ ١٧ ، ومجاهدة النفوس تعنى تحقيق شروط صحة الأعمال وهى:

أولاً: أن يكون العمل صادقاً:

وذلك بتخطي العقبة الكئود، فما بعدها أيسر، ألا وهى النفس، يقول تعالى: ﴿ ... وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ التغابن / ١٦، وبالانتصار على النفس تبدأ المجاهدة.

ثانياً: الجزاء الحقيقى قبول العمل:

ثم يعمل الإنسان لمحض العبودية، فأعظم الجزاء على الأعمال أن يتقبلها الله، فإلى جانب عيوب النفس التى لا تتناهى فإن الله تعالى يقبل منا العمل يقول تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ... ﴾ الأحقاف / ١٦ ، ولم يقل الله (نتقبل منهم) لأن (منهم) تعنى أن أعمالهم كاملة لا عيب فيها ولكن لأنها ناقصة قال تعالى: ﴿ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ ﴾ بمعنى نتجاوز عنهم فنتقبل أحسن ما عملوا على عيبها وآفاتها وعللها.

ثالثاً: الإيمان بأن الفضل من الله

فالكل فعله وعطاؤه يقول تعالى: ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) ﴾ ، ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١) ﴾ الإسراء ٢٠ : ٢١ ، فكل الأمور تسير بفضله وجوده وكرمه ولو عاملنا الله بعيوبنا لكانت كارثة، فمن رحمته بنا مع علمه بما هو أخفى من عيبنا، فإنه يصاحبنا، يقول سهل بن عبد الله رضي الله عنه :

(إذا عمل العبد حسنة وقال: يارب بفضلك عملت وأنت أعنت وأنت سهلت، شكر الله ذلك له، وقال: يا عبدى بل أنت أطعت وأنت تقربت وإذا نظر إلى نفسه

وقال: أنا عملت وأنا أطعت وأنا تقربت أعرض الله عنه وقال له :ياعبدى أنا وفقت وأنا أعنت وأنا سهلت. وإذا عمل سيئة: وقال يارب أنت قدرت وأنت قضيت وأنت حكمت، غضب المولى جلت قدرته عليه وقال: يا عبدى بل أنت أسأت وأنت جهلت وأنت عصيت، وإذا قال: يا رب أنا ظلمت وأنا أسأت وأنا جهلت أقبل المولى جلت قدرته عليه وقال: يا عبدى أنا قضيت وأنا قدرت وقد غفرت وقد حلمت وقد سترت).

* ولذلك إذا تولانا الله أعطانا ورحمنا وأكرمنا بفضله وفيضه، ونظر إلينا وذكرنا وفى هذا رفع لعملنا وتمجيد له، ومن أهمله الله وتركه مع نفسه لا نهاية لقبائحه ونقائصه، وكما قيل: (إن كنت بربك تَكَمّل عزك وإن كنت بنفسك تكامل ذُلك) ، حتى أنه يصبح مشلولاً منعزلاً صامتاً لا يستطيع أن يواجه الناس ويدعوهم إلى الله، والسبب فى ذلك اعتمادهم على أنفسهم، كما قيل: (لما اعتمدوا على أنفسهم أصمتتهم هفواتهم وإساءاتهم).



٦. عادات النفوس

* بعض الناس يقولون لى عادات قد تعودت عليها نفوسنا ولا نستطيع الفكاك منها، وقد ألفناها ومن الصعوبة أن نتحول عنها، والعادات قد تكون ظاهرية كالأكل والشرب والنوم واللباس والاختلاط بالناس، والكلام والمخاصمة والعتاب والغضب والاندفاع، ومنها المعنوية كحب الرئاسة والجاه وحب الدنيا والمدح والكبر والرياء والطمع فى الناس وخوف الفقر، وهم الرزق والقسوة والفظاظة.

فهل بالفعل لا يمكن التحرر من قيد هذه العادات وهل تظل النفوس محبوسة بأغلال هذه العادات؟ أم أن النفوس يمكن أن تخرق هذه العادات رغم ألفتها وتغيرها إلى عادات أفضل وألوفات أحسن؟!

* قيل: [بالرياضات القهرية تخرق العوائد الحسية] أى بالجوع والسهر أو قل بالصيام وقيام الليل، وبالخلوة والصمت أو قل بالاعتكاف وبالسنن وبالنوافل. مما كتبه أحد العارفين إلى بعض إخوانه: (أما بعد فإن أردتم أن تكون أعمالكم زكية وأحوالكم مرضية فقللوا من العوائد فإنها تمنع الفوائد).

* فإذا أردت جنى الفوائد فخالف نفسك بمعنى أن تخرق ما تعودت عليه النفوس من عادات ومألوفات بأن تجعلها كلها طاعات وعبادات وخدمات وقيل لبعضهم بم أدركت ما أدركت ؟ قال : وحدّته بأفضل التوحيد ، وخدمته خدمة العبيد، وأطعته فيما أمرنى ونهانى فكلما سألته أعطانى) وصدقت حكمة ابن عطاء: (من خرق العوائد ظهرت له الفوائد).

* ومن عادات النفوس حب الثناء والمدح ، فهل يستكمل النقص فى النفس بمدح المادحين؟ المتأمل يتأكد له أن المدح لا يدفع نقصاً ولا يعالجه ولا يستكمله! ولذلك كانت القاعدة أمام المادحين ألا يلتفت الإنسان إلى أقوال الثناء بل يرجع إلى نفسه بالذم لما يعلمه منها وما يعلمه من أعمال خفية، فلكل إنسان خبيئة من نفسه، يقول تعالى: ﴿ بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴾ القيامة/ ١٤، هذا لو كان ما مدح به موجوداً فيه، وإلا فيذمها بالنقص والتقصير، ولذلك قالوا:

* إذا مدحك الناس بشئ ليس موجوداً فيك فارجع على نفسك بالذم .

■ لا يغرنك ثناء الناس على ظاهرك فأنت تعلم من نفسك اللب الباطن الذى لا يعلمه الناس .

■ يقال عند المدح: اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون ولا تؤاخذنى بما يقولون واغفر لنا ما لا يعلمون. وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ... **فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ** ﴾ النجم/ ٣٢، أى تمدحوها وتشكروها وتمنوا بأعمالكم فهو أعلم بمن اتقى كما قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً** ﴾ النساء / ٤٩ .



٧. ميزان النفوس

* يقول الله تعالى: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾ الحج / ٧٨ ، ويقول تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ... ﴾ العنكبوت/ ٦٩ ، فهل يوجد ميزان فى حق المشتغلين بالمجاهدة يعرفون به الحق والباطل مع أنفسهم؟ ومن أبلغ ما قيل فى ذلك من قواعد هذه القاعدة الميزانية: (إذا التبس عليك أمران، فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه، فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقاً) .

فكل ما يثقل على النفس فالواجب اتباعه فهو حق، وكل ما يخف عليها فهو باطل وفيه حظها فالواجب اجتنابه، ومثال ذلك قد يثقل عليها الصوم أوقيام الليل أو الصدقة أو حفظ القرآن أو الصمت أو الاعتكاف أو خدمة الآخرين وقد يخف عليها غير ذلك، فليكن العبد على نفسه بصيرة، ومن البصيرة أن يسير معها على عكس مرادها، ويخالفها ويتهمها فيما تأمره أو فيما تستحسنه.

* وهذه سنة الله فى عباده، فإن النفس لا تريد أن تخرج عن رأيها ومرادها أبداً، فإذا قال قائل: أنا أعمل العمل، كيف أكتشف أن لنفسى حظاً فى هذا العمل؟ نقول له: إن كان العمل ثقيلاً عليها فهو حق وصحيح فامضه، متوكلاً على الله تعالى، ومن يتوكل على الله فهو حسبه .

وأمثلة ذلك فى حياة المسلم اليومية وخاصة الذين يشتغلون بالعمل الإسلامى، بهذا الميزان الذى هو المخرج حينما تختلط الأمور، ألا وهو (مخالفة النفس) فالبعض يضيع وقته فى القيل والقال يظن الإصلاح وهو لغو، أو فى النوافل ويترك فروض العين والكفاية، يظن التعبد الزائد وهو من علامات هوى النفس، ويبقى هذا الميزان للنفس حينما يسأل الإنسان نفسه:أين عمله من حظ وهوى النفس؟!

* والمقصود بأثقلهما على النفس أى من جهة الطبع، وعلامات الثقل ثلاث (العجلة والأمن وعمى العاقبة) بمعنى: من توجه لشئ لا يعرف له مادة فى الأحكام يرجح فيه الترك من الفعل، فإن كان فعله مع أمن لا مع خوف، ومع عجلة لا مع تأن، ومع عمى العاقبة لا مع بصيرة بها، فاعلم أن خفته على النفس من هواها وحظها، وذلك لأنها مجبولة على ضد الخير، فإذا أدبرت بلا علة أو أقبلت بلا دليل يذكر، فهو

دليل هواها، وهذا حال النفس اللوامة التى تخطئ وتصيب، أما من رزقها الله نوراً وهدى تهتدى به، فهى تتبع الشرع وتحسن الظن بالمسلمين، فإن وجدت شبهة توقفت، والأصل فى ذلك قوله ﷺ :

« استفت قلبك وإن أفتوك وإن أفتوك وإن أفتوك» .



٨. حركات النفوس

يقول تعالى: ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ النساء/ ٧٩، يقول ابن كثير: (ان ما جرت عليه سنة كونية خيراً فهو من الله، أما إن أصابتك سيئة فيما لك منه دخل فهو من نفسك)، فالمؤمن بين أمرين بين لوم نفسه والثقة بحكمة أقدار الله تعالى.

* تتحرك النفس مع الإنسان حركات عجيبة، فلماذا حركها الله تعالى؟ وكيف تتحرك؟ ... معنى تحريك النفس: أن تطلب ما تهواه وأن تؤثر دنياها، وأن تلبى كثرة متطلباتها، وأن لا تفى بعزمها، وهذا هو الرضا عن النفس، فما الحكمة الربانية فى ذلك؟ يقول ابن عطاء:

(حرك عليك النفس ليدوم إقبالك عليه)

وإقبالك على الله فى ثلاث صور:

الأول: الثقة فيما ترتجيه من الله .

الثانى: اللجوء إليه فيما تتقيه .

الثالث: الإنابة له فيما ترتضيه.

وبالتأمل فى هذه الصور، نرى أن النفس تتحرك على صاحبها وهو تحت المقادير، إن كان مهموماً أو مبتلى أو مظلوماً أو مقهوراً أو مسجوناً، فنفسه ترجو له الفرج والتفريج والإفراج مماهو واقع فيه، وتلح عليه بحركاتها، فمن لم يجد إيماناً فى قلبه فإنه يتقطع حسرة وهماً وحزناً وتضيق عليه الأرض بما رحبت، أما المؤمن فإنه يزداد ثقة فى وعده وفرجه القريب، يراه كلما ضاقت به الأمور، ويستشعر به عند استحكام الحلقات عليه.

* ومن حركات النفوس أنها تلح على صاحبها بأن يتقى الإبتعاد عن ماله وأولاده وزوجته ووطنه ومسكنه والحبس وكبت حريته وضياع هدفه، وأمام هذا الإلحاح يلجأ المؤمن إلى الله، يستمد منه العون ويتزود، فالله بيده الأمر ويسمع ويرى، ويكفيه فخراً وتيهاً أن المبلى له هو الله فيزداد قرباً لاختياره إياه وتقديره له.

ومن حركات النفوس أنها تلح على صاحبها بكثرة متطلباتها وحظوظها وإيثار

متع وشهوات دنياها، فيقع فى أخطاء الرضا بذلك، التى تبعده عن ربه، وحال المؤمن أمام ما يرتضيه هو الإنخلاع من منبع العيب بالإنابة والأوبة والعودة والتوبة، لتجديد السير والنهوض من جديد.

* وهكذا حركات النفس تدفعك إلى مداومة الإقبال على الله فى كل لحظاتك، فلا تنزعج لحركاتها مادام قلبك عامراً بالإيمان، حيّاً بالرحمن، صادق التوجه إليه تعالى، متسلحاً بالعلم بربه الذى يقربك إلى الله إذا أعرض الناس عنك أو امتدت أيديهم بالإيذاء أو إذا إدلهمت الأمور، ثم بيقظتك الدائمة وملازمتك الإقبال على الله وطاعته عند كل الظروف، وبذلك يمكننا القول: أنك تستطيع أن تتخطى عقبة النفس، يقول أبو الحسن: (أعظم القربات عند الله مقاومة النفس بقطع إرادتها وطلب الخلوص منها بترك ما تهوى لما يرجى من حياتها، وإن من أشقى الناس من أحب أن يعامله الناس بكل ما يريد، وهو لا يجد من نفسه بعض ما يريد) .



٩. ميادين النفوس

ربما يسأل سائل هل كل الشر يأتى من قبل النفوس؟ وهل النفوس هى المسئولة عن كل هذه القبائح والنواقص؟ وللإجابة على هذا التساؤل علينا أن نتعرف على ميادين النفوس الثلاثة ومنها نخلص إلى أن النفوس هى المسئولة أيضاً بوصفها السابق عن كل تقدم ورقى فى معرفة الله والسير فى طريقه فلولاها ما كان سيراً أصلاً! وهذا يحتاج إلى تفصيل وهذا ما سنحاول معرفته بعون الله وتوفيقه، فالميادين ثلاثة: ميدان القول وميدان العمل وميدان الجهاد، وهى ميادين متداخلة يسلم بعضها بعضاً، وأى إهمال فى واحدة يؤدى إلى خلل فى التى تليها، ولذلك تحتاج إلى حراسة مع يقظة دائمة لأن الغفلة من المدمرات الفاتكة بها.

أولاً: ميدان القول: وصاحبها يسير فى طريق الغفلة، وفيها تطلب النفس حظوظها وشهواتها وهواها، وفى براثن الغفلة تنتفش القبائح ولا تدرى بها النفس، وإن لهجت الألسنة بأقوال التوبة وكلام الإقلاع عن الحظوظ.

وعلاج هذا الميدان:

الإيمان ثم الإستقامة حتى تتحقق النفوس بالعمل، وبذلك تدخل فى ميدانها الثانى، أرأيت كيف أن الإستقامة بدأت من المساوئ والقبائح فلولاها ما كان تقدم أو عمل.

ثانياً: ميدان العمل: وفى ميدان العمل قد تخدع النفس صاحبها، فتراه يعلن إيمانه دون تحقيق، ويرفع إسلاماً دون إستقامة، فلا يتقيد بشرع ولا يحتكم لدين، ولا يتبع سنة ولا تشريعاً، مع أنه مع العاملين، بل نفسه تدفعه إلى غير الإسلام يستمد منه العون والقدرة ، فهو كالحائر يبحث عن نجد وهو فيها، وقد أطلقوا على أصحاب هذه النفوس أنهم يسيرون فى طريق الوهم مع زعمهم الالتزام قد رفعوا العلم شعاراً دون اتباع ، ولم يحققوا غاية الالتزام من خشية القلب لربه، وخضوعه لمولاه.

وعلاج هذا الميدان:

بالمزيد من العمل حتى يحقق الغاية من خشية وهيبة رب العالمين، وحضور القلب، والطمأنينة الدائمة حتى يتحقق بالبصيرة ويحمل (النفس المطمئنة): ﴿قُلْ

هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ يوسف / ١٠٨ ، وهكذا تبدد البصيرة الوهم لتتحقق النفس بالعمل المستمر والطمأنينة.

ثالثاً: ميدان الجهاد: وفى ميدان الجهاد يكثر الزاعمون للإصلاح والصلاح والعلم والدعوة والتربية، والإدعاء فى هذا الطريق يتعرض لإمتحانات عاصفة، والمرء تفضحه شواهد الإيمان، ومن ارتدى رداء الإدعاء كشفته العواصف الهادرة، والعجب أن مدار هذا الزعم غالباً ما يكون فى الخير إن لم نقل كله فى الخير!! وذلك لأن النفوس ما زالت فى ميادين الإيمان والعلم والعمل فهى خاصة بالمؤمنين أما الكافرون والمنافقون فزعمهم بالصلاح والإصلاح وعمارة الكون باطل محض لأن نفوسهم مغلقة لا بصيص أمل ينتظرها بعد أن أغلقت النوافذ أصلاً من الإيمان والتوحيد!!

وعلاج هذا الميدان : سهل وميسور... إنه الفرار الدائم إلى الله واستمرار اللجوء إلى الله حتى تتحقق المعرفة، فتبدد سراب الزعم وتدمر ليل الدعوى. وهكذا ميدان القول غير ميدان العمل وميدان العمل غير ميدان الجهاد ورضى الله عن عبد الله بن رواحة يوم أن ترددت نفسه يوم مؤتة فخاطبها بقوله:

أقسمت يا نفس لتنزلن
لتنزلن أو لتكرهنّه
إن أجلب الناس وشدوا الرنّة
مالى أراكِ تكرهين الجنة



١٠. تواضع النفوس

حقيقة الإنسان أن نفسه التى بين جنبيه موسومة بالنقص أصلاً وفرعاً، فكيف يرى لها رفعة ومزية ومرتبة؟ وهل يصير ذلك عند العقلاء مقبولاً ؟ ... حينما عرف اللغويون معنى التواضع اللفظى قالوا: (ثبوت منزلة ورفعة صدر التنازل عنها) وهذا يتنافى مع حقيقة الإنسان التى تأبى ذلك... فهل تسمى ذلك تواضعاً؟ من أقوالهم: (من أثبت لنفسه تواضعاً فهو المتكبر حقاً) ويقول الشبلى: (من رأى لنفسه قيمة فليس له من التواضع نصيب) ويقول أبو سليمان الدارانى: (لا يتواضع العبد حتى يعرف نفسه) بل إن أبا يزيد يقول: (ما دام العبد ينظر أن فى الخلق من هو شر منه فهو متكبر وقيل: فمتى يكون متواضعاً؟ فقال: إذا لم ير لنفسه حالاً ولا مقاماً). وعلى ذلك ليس المتواضع إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع ولكن المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع.

* **والتواضع أساساً يقوم على أمرين:** إما نظر الإنسان إلى نفسه ووصفها بالنقص فإذا ادعى لها رفعة خالف بذلك أصلها، وإما نظر الإنسان إلى أوصاف ربه وكماله، فيرى أن كل شئ دون الله نقص ومحتقر، يقول ذو النون: (من نظر إلى سلطان الله تعالى ذهب نفسه لأن النفوس كلها حقيرة عند هيبته، ومن أشرف التواضع أن لا ينظر إلى نفسه دون الله تعالى). فالتواضع فى معناه مجاهدة النفس لأنها تريد الرفعة والإنسان يريد السقوط، والذين تكبروا كان السبب فى تكبرهم أنهم أثبتوا المزية لأنفسهم ورفعوها ثم أثبتوا لها التواضع فهم المتكبرون على الناس حقاً. يقول الجنيد: (من رأى نفسه قد تواضعت فهو يحتاج إلى تواضع، ولو تبرأ منها ومن تواضعها لكان متواضعاً) .

* وهذا سر المخالطة الربانية فى حياة النبي ﷺ مع أصحابه الكرام: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ... ﴾ الفتح/ ٢٩، ويقول تعالى: ﴿ ... أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ... ﴾ المائدة/ ٥٤ .

ومن صور المتواضعين :

- لا يثبتون لأنفسهم تواضعاً مهما تواضعوا.

■ يرون أنهم دون ما صنعوا لا فوق ما صنعوا مهما تواضعوا.

■ إذا قدموا غيرهم فإنهم يرون أن ما فعلوه دون المطلوب.

■ يشهدون عظمة مولاهم وينسون أنفسهم وحظوظهم، يقول تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ... ﴾ آل عمران/ ١٥٩ .

وهذا هو تواضع النفوس الحقيقي، فالكمال لله وحده :

فما التأنيث في اسم الشمس نقص

ولا التذكير فخر للهلالِ



١١. جزاء النفوس

* يقول تعالى: ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ يونس/ ٣٠، هذا يوم القيامة حيث تختبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها من خير وشر، يقول تعالى: ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ الإسراء/ ١٤.

فالأمور كلها ترجع إلى الله الحكم العدل، والإنسان لم يظلم ولم يكتب عليه إلا ما عمل يقول تعالى: ﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا .. ﴾ الإسراء/ ١٥.

والساعة كائنة لابد منها، وقائمة لا محالة، لا يطلع عليها أحد، ليجزى الله كل عامل بعمله يقول تعالى: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ طه/ ١٥.

فأنت مسئول وحدك، تقدم الحجج بنفسك، حيث لا ينفع أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة، يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ النحل/ ١١١.

* وأوضح الله تعالى جزاء من ترك لنفسه العنان واستجاب لما حسنته لصاحبها، من اقتراف الحرام، والوقوع فى المفاسد، يقول تعالى: ﴿ ... لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ المائدة/ ٨٠. وكانت النفس من الأسباب التى جعلت بنى اسرائيل تنقض عهدها ولا تستجيب لرسلها يقول تعالى: ﴿ ... كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ المائدة/ ٧٠. والنتائج لمن اتبع هواه كانت الخسران والهلاك وعودة مكرهم عليهم:

- يقول تعالى: ﴿ ... الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ الأنعام/ ٢٠.
- ويقول تعالى: ﴿ ... وَإِن يُهْلِكُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ الأنعام/ ٢٦.
- ويقول تعالى: ﴿ ... وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ الأنعام/ ١٢٣.

وذلك جزاء كذبهم وظلمهم وبغيهم:

- يقول تعالى: ﴿ انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ... ﴾ الأنعام/ ٢٤.
- ويقول تعالى: ﴿ ... وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ الأعراف/ ١٧٧.

■ ويقول تعالى: ﴿ ... يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يونس/ ٢٣ .

* أما جنات عدن فهى الجزاء الذى ينتظر من زكى نفسه، وطهرها من الخبث والدنس والعيوب، وحقق عبوديته لله وحده، واتبع النبى ﷺ فيما جاء به، وكان النبى ﷺ أحب إليه من نفسه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ... ﴾ الأحزاب/ ٦ ، وفى الصحيح « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين».

هذا الجزاء الجميل خاص بهؤلاء كما فى قوله تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ طه/ ٧٦ . وجنات عدن هى مدينة الجنة فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى ومن حولها الناس فى الجنات، ويجمع الله أهل جنات عدن وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح يقول تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ... ﴾ الرعد/ ٢٣ .

حتى أنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله وإحساناً من غير تنقيص للأعلى عن درجته كما قال الله تعالى: ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإحسان ألحقنا بهم ذريتهم** ﴾.

* والطريق إلى الحصول على هذا الجزاء الجميل، ودخول جنات عدن، والاستقرار فيها، أوضحه الله تعالى بأنه يبدأ من تغيير النفوس، والابتعاد عن الذنوب، يقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ الأنفال/ ٥٣، فأخبر الله تعالى عن تمام عدله وقسطه فى حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنبه الذى ارتكبه، كقوله تعالى: ﴿ ... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴾ الرعد / ١١ أو قوله تعالى : ﴿ **كدأب آل فرعون** ﴾ أى كصنعة آل فرعون حين أهلكهم الله بسبب ذنوبهم وسلبهم تلك النعم التى أسداها لهم من جنات وعيون وزروع وما ظلمهم الله فى ذلك بل كانوا هم الظالمين.



١٢. طريقك إلى جنات عدن

* الله تعالى يحب لعباده الخير، فحفظ علينا نفوسنا ليوجهنا إلى طريق الصلاح يقول تعالى: ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ أي حفيظ عليم رقيب على كل نفس، لا يخفى عليه خافية، يقول تعالى: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً ﴾ الإسراء / ٢٥ . وقد دلّنا الله تعالى على طريق النفوس للحصول على جنات عدن بهذه الوسائل:

أولاً: أوصانا الله بالقرآن وتدبره والعمل به والتذكرة الدائمة به، لئلا تفتضح نفس أو تهلك أو تحبس عن الخير أو يحال بينها وبين العبودية، يقول تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ بِهِ - أى القرآن - أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلا شَفِيعٌ ﴾ الأنعام/ ٧٠ .

ثانياً: وأوصانا الله تعالى بالبصيرة بمعرفة عيوب أنفسنا وعلاجها وكلها تعود على صاحبها بالفوائد والنفع يقول تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ الأنعام/ ١٠٤ .

ثالثاً: وأوصانا الله بطريق الدعوة، وهداية المجتمع، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ففيما رواه أحمد أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس انكم تقرءون هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ . . . ﴾ المائدة/ ١٠٥، وإنكم تضعونها على غير موضعها وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه.

وروى عبد الله بن المبارك أن أبا ثعلبة الخشنى حينما سئل عن هذه الآية قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً سألت عنها رسول الله ﷺ، فقال: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام فإن من ورائكم أياماً الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين يعملون كعملكم » قال الترمذى حديث حسن صحيح.

* وهل يرجع أهل الباطل إلى أنفسهم؟ فى القرآن الكريم بين الله تعالى أنهم

يرجعـون إلى أنفسـهم ويراجعـون مواقـفـهم ليس للوصـول إلى الحق، وإنما ثباتاً واستمراراً على باطلهم، يقول تعالى عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ الأنبياء/ ٦٤، أي عادوا بالملامة على أنفسهم فى عدم حراستهم لآلهتهم وتركها مهملة بلا حماية.

بل إنهم يوم القيامة يعترفون على أنفسهم ويقرون بعنادهم وكفرهم ومعاداتهم للاسلام، يقول تعالى: ﴿ ... وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ الأعراف/ ٣٧ . وذلك جزاء إغلاقهم لعقولهم وقلوبهم وأفئدتهم فأغلق الله النوافذ والأبواب، وكان الأولى بهم أن يراجعوا أنفسهم للعودة إلى الله، وأن يعترفوا بظلمهم فى الدنيا من أجل الأوبة إلى ربهم، فالكلمات التى تلقاها آدم من ربه، فتاب الله عليه، هى فى قوله تعالى على لسان أبينا آدم عليه السلام: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الأعراف/ ٢٣ .

فنفع العمل الصالح يعود على فاعله مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ... وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ فاطر/ ١٨، وذلك فى يوم الجزاء، حيث ينال العاملون جزاءهم، يقول تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يس/ ٥٤ ، فهنيئاً هنيئاً لمن فاز! ويا لها من بشرى! يطلعنا الله عليها ! لمن اجتهد وجاهد وكابد وانتصر على حركات نفسه، فأخفى عمله، وجعله سراً بينه وبين ربه، فأخفى الله له من الثواب جزاءً وفاقاً نعيماً مقيماً ولذلت لا يطلع على مثلها أحد، يقول تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ السجدة/ ١٧ .

يقول الحسن البصرى: أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم مالم تر عين ولم يخطر على قلب بشر، وروى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال الله تعالى: (أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ . وقيل فى تفسير : ﴿ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ فيما رواه ابن أبى حاتم عن عامر بن عبد الواحد قال: بلغنى أن الرجل من أهل الجنة يمكث فى مكانه سبعين سنة ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه فتقول له: قد أنى لك أن يكون لنا منك نصيب فيقول من أنت؟ فتقول أنا من المزيد، فيمكث معها سبعين سنة ثم يلتفت فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه فتقول له: قد أنى لك أن يكون لنا منك نصيب، فيقول: من أنت؟ فتقول: أنا التى قال الله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ .

١٣. أمل النفوس

* وبعد هذه الرحلة في داخل النفوس، والتي صحبتنا فيها ضياءات الإسلام التي أنارت لنا الدرب، وكشفت لنا عن خبايا الطريق، لم يبق لمن اصطفاه الله من عباده إلا الجنة يرغد في نعيمها الدائم، يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ فاطر/ ٣٢، يقول ابن عباس: ﴿ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ هم أمة محمد ﷺ فظالمهم: يغفر له، ومقتصدهم: يحاسب حساباً يسيراً، وسابقهم: يدخل الجنة بغير حساب ثم قال تعالى أن مأوى هؤلاء المصطفون من عباده جنات عدن في قوله تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ فاطر .

* ولم يبق أمام النفوس إلا الإنابة والتوبة، فما أعظمها من دعوة من الله إلى المذنبين بالأوبة، في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ الزمر/ ٥٣ ، ففيما رواه الامام أحمد أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله إن لي غدرات وفجرات فهل يغفر لي؟ قال ﷺ : ألست تشهد أن لا إله إلا الله ، قال: بلى وأشهد أنك رسول الله، فقال ﷺ : قد غفر لك غدراتك وفجراتك.

وذلك مصداقاً أيضاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ النساء / ١١٠ يقول ابن مسعود: إن أكثر آية في القرآن فرحاً: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ فهنيئاً لأمة محمد ﷺ بأبواب الأمل وإن ولغت النفوس بالذنوب!! .

* أنشد ابن أبي الدنيا في كتابه التفكر والاعتبار عن شيخه أبي جعفر القرشي حيث قال:

وإذا نظرت تريد معتبراً
فانظر إليك ففيك معتبر

يقول تعالى للمتأمل المتفكر: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ

أَنَّهُ الْحَقُّ ... ﴾ الشورى/ ٥٣ .

فيا أيها العقلاء المتبصرون، بشراكم مع ربكم، الذى يقول: ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال: « **إن الله تعالى تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل** » .



وأخيراً

إن هذا الأمل الكبير الذى ينتظر النفوس الصالحة، كأنه يهمس فى نفوسنا:

لا تحقرن من الذنوب صغيراً
إن الصغير غداً يعود كبيراً

إن الصغير ولو تقادم عهده
عند الإله مسطراً تسطيراً

فازجر هواك عن البطالة لا تكن
صعب القياد وشمرن تشميراً

إن المحب إذا أحب إلهه
طار الفؤاد وألهم التفكيرا

وهذه همسة أخيرة من صاحب النفس الصالحة المطمئنة أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو يقول فى خطبته :

من استطاع أن يفضى الأجل وهو فى عمل الله عز وجل فليفعل، ولن تنالوا ذلك إلا بالله عز وجل، وإن قوماً جعلوا آجالهم لغيره فنهاكم الله عز وجل أن تكونوا أمثالهم ، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ... ﴾ الحشر/ ١٣، وندعو بدعاء النبى ﷺ : « اللهم إنى أسألك نفساً بك مطمئنة تؤمن بلقائك وترضى بقضائك وتقنع بطاعتك » .

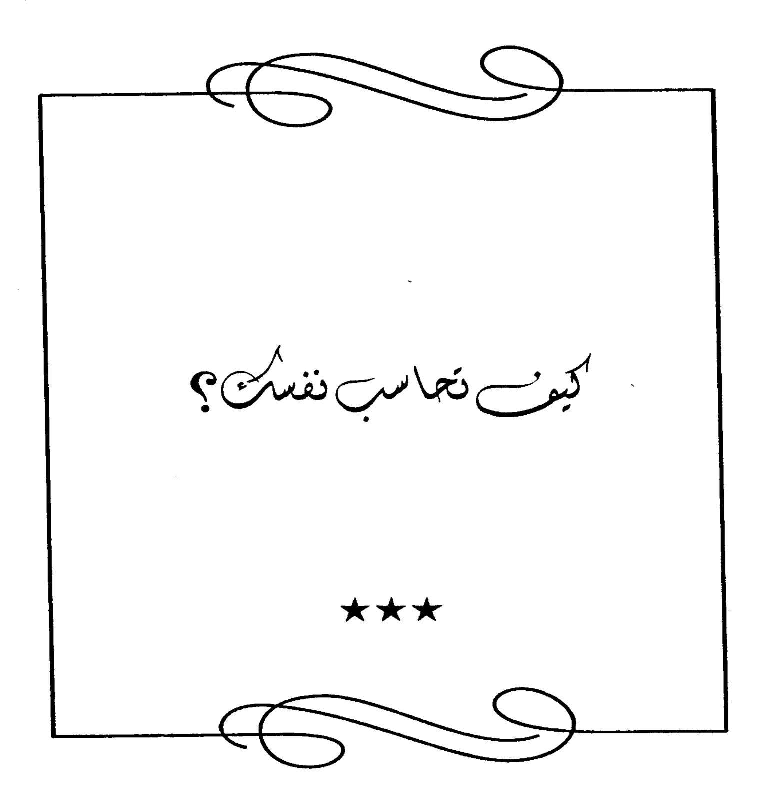


* وفى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ التكوير/ ٧، قيل: يأتى الرجل مع شيعته، الرجل الصالح مع الرجل الصالح وكذلك يقرن الرجل السوء مع الرجل السوء، وأجمعوا على أنهم الأمثال من الناس، وخطب عمر بن الخطاب فأوضح معنى زواج النفوس بقوله: تزوجها أن تؤلف كل شيعة إلى شيعتهم حتى بلغ قوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴾ التكوير/ ١٤، قال عمر: « لهذا أجرى الحديث» بمعنى كل ما قيل على النفوس وتربيتها فعلى كل نفس منا أن تعلم ما عملت وأن ما عملت سيكون حاضراً ومحضراً، ولذلك كانت « تربية النفوس » .



★★★

ثالثاً : محاسبة النفس



محاسبة النفس

كيف تحاسب نفسك؟

١. أنواع المحاسبة

يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الحشر: ١٨) .

وقوله تعالى: ﴿ ... وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ... ﴾ أى: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم.

وقوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ الشمس / ٩ ، قال الحسن :معناه (قد أفلح من زكى نفسه ، فأصلحها وحملها على طاعة الله تعالى).

وفى الحديث عن أنس قول النبى ﷺ : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت و العاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى».رواه أحمد

ويقول ميمون بن مهران : (لا يكون العبد تقيا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه) ولهذا قيل: النفس كالشريك الخوّان، إن لم تحاسبه ذهب بمالك.

ومن خلال هذا العرض القرآنى و التفسير النبوى، يتضح لنا أن المحرك الأول لصلاح أنفسنا وتزكيتها ومحاسبتها، هى أصدق نظرة فى الوجود ، النظر إلى يوم القيامة حيث تظهر خبايا الأنفس ومكنون أسرارها، ومن ثم هى دعوة فى الدنيا للتزود ليوم المعاد، ويوم العرض على الله تعالى ، ولا يتم ذلك إلا بمحاسبتها ، وقد أطلق الحبيب ﷺ على من يحاسب نفسه (الكيس) فهو العاقل الراشد الذى فقه ما ينفعه وما يعود عليه بالخير، أما غيره الذى لا يحاسب نفسه فهو العاجز، خاصة أمام شريك خوّان، وهى صيغة مبالغة من (الخائن) ، وتصور أن شريكك الخائن تحاسبه يوما فى الأسبوع أو شهراً فى العام، ولكن نفسك معك فى صحوك وفى منامك وفى عملك فى صحتك وفى عجزك ، فى مرضك وفى عافيتك ، لا تتركك لحظة ، إلا

وتزين لك فعل الشر، وتخفف عليك فعل المعصية، ولذلك تعددت أنواع المحاسبة ، لأن محاسبة النفس دائمة ومستمرة ولا تنقطع فما أنواع المحاسبة؟

النوع الأول: قبل العمل

* وقبل أن يهم الإنسان بالعمل لابد من محاسبة نفسه ، وذلك عند أول خاطرة ، عند أول إرادة، عند أول هم بالعمل ، وعلامة نجاح ذلك فى قولهم : (ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحان العمل به على تركه).

* وقد حدد الحسن رضي الله عنه كيفية المحاسبة قبل العمل فى قوله :

(رحم الله عبداً وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر).

وهذا هو المفتاح به تبدأ أو تتأخر ، به تفتح أبواب الخير ، أو توصد أبواب الشر .

النوع الثانى : بعد العمل

* فإن فاته قبل العمل ، فالفرصة أمامه للمحاسبة بعد العمل مباشرة، ولا يؤجل ذلك، لتصحيح مسار حياته ، وتصويب الخطأ عند أول فرصة ، وصور المحاسبة بعد العمل ثلاثة، تحتاج منا إلى تأمل وعمل:

الأولى: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى ، فلم تفعلها على الوجه الذى ينبغى ، وتبدأ المحاسبة بسؤالها: هل قمت بطاعة الله على وجه يرضى الله تعالى أم قصرت بذلك؟

الثانية: أن يحاسب نفسه فور كل عمل يقوم به، كان تركه خيراً من فعله، لماذا فعلته ، ولو تركناه لجاءنا خير عظيم؟!

الثالثة: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد ؟ لم فعله ؟ وهل فى الأمر المباح ؟ وهل فى الأمر المعتاد محاسبة؟ إن السؤال هنا : هل أراد بالعمل وجه الله أو أراد به الدنيا ، أراد بالعمل الربح فى الدار الأخرة أم أراد به المصلحة وليس وجه الله فخسر الأرباح ، هل أراد نفع غيره أم نفع نفسه ولوكان فيه ضرر بغيره فيفوته الفوز العظيم و الظفر بالحياة الخالدة فى الجنان.



٢. منافع محاسبة النفس

إن كانت المنافع إجمالا فى معرفة الله تعالى وتوقيره وتعظيمه ، ثم التزود بالطاعات له وتحقيق العبودية ، لكفى بها فوائد بما يعود على المسلمين راحة قلبية ، وقرب من الرحمن، وحياة طيبة كريمة ، ومن خلال هذا الإجمال نفصل :

المنافع فى الآتى:

١ـ معرفة عيوب النفس:

من عقوبات الله تعالى أن يكل الله الإنسان إلى نفسه ، فلا يكتشف عيبها ولا يشعر بمساوئها ، وبالتالى من لم يعرف عيوب نفسه لا يستطيع أن يعالجها، أما من عرف نفسه ، عيبها وخطئها ، فهو الذى يتدارك ما فات، ويعود تائبا نادما إلى ربه إن كان مذنبا ويعود منيبا أو أوابا إلى ربه إن كان مؤمنا.

٢ـ معرفة حق الله تعالى :

فمن عرف الله حقا ، فإنه أول من يبادر فى محاسبة نفسه ، على التفريط فى حق الله لقوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴾ عبس / ٢٤ ، كان يذهب أحد الصالحين إلى المقابر ، ويتلو هذه الآية ﴿ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴾ عبس / ٢٣ ، فقد خرجوا جميعا من الدنيا ولم يوف أحدهم بحق الله تعالى ، ويقضى ما أمره الله من صلاح وإصلاح ، ودعوة وإرشاد ، وإيمان وتقوى ، ومن كرم الله وعفوه فى أن الله تعالى لم يعجل بعقوبة لمن فرط فى حقه، فإذا به بالمحاسبة يفتح الله له باباً من الذل و الانكسار و الخضوع و الافتقار إلى الله وحده ، وهذا هو السر فى تقوى الصالحين وأنس العارفين، و السبب يرجع مباشرة إلى محاسبتهم الدائمة لأنفسهم ، لأنهم عرفوا حق الله تعالى عليهم .





★★★

٣. مقت النفس في ذات الله

وهذا ما وصل إليه الأصحاب الكرام ، فحصلوا على أعلى المنافع، وأحلى الثمار، يقول أبو الدرداء : (لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس فى جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتا) ولذلك يؤكد ابن القيم قائلاً: (مقت النفس فى ذات الله من صفات الصديقين) .

الذين هم فى الرتبة البشرية الثانية بعد الأنبياء مباشرة ، ثم يكمل ابن القيم [ويدنو العبد به (يمقت نفسه) من ربه تعالى فى لحظة واحدة أضعاف ما يدنو بالعمل] وهل بعد هذه الثمرة من ثمار يجنيها من يحاسب نفسه ، يقول رائد المحاسبين أنفسهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه : (من مقت نفسه فى ذات الله أمنّه الله من مقته) وهذا هو جزاء العادل تعالى ، فهل هيئنا أنفسنا لهذا الموقف الجليل بمقتها فى ذات الله تعالى؟!.

ومن أمنه الله من مقته ، أعانة على مراقبته فى الدنيا ، فأخذ بزمامها اليوم وحاسبها ، ليستريح غداً من هول الحساب، فالفرصة أمامنا لتصحيح كل ما فات ورد الحقوق إلى أهلها ، وفتح صفحة جديدة مع الله تعالى ، نبدأ منها الاجتهاد فى الطاعة و المجاهدة فى ترك المعصية ، لنحصل على أعلى الثمار فى الربح و الفوز ، بدخول جنة الفردوس و النظر إلى وجه الله تعالى.



٤. أضرار ترك المحاسبة

لماذا يسهل على البعض مواقعة الذنوب؟

بينما يكون صعبا على أنفسهم التخلص منها؟

ربما هذا السؤال يدور فى أذهان الكثيرين وما وجدت إجابة شافية عليه إلا من عالم النفوس الإمام ابن القيم حيث يقول: (وأضر ما عليه الإهمال وترك المحاسبة وتسهيل الأمور فإن هذا يؤول به إلى الهلاك ، وإذا فعل ذلك يهّن عليه مواقعة الذنوب وعسّر عليه التخلص منها) .

فالأمر يرجع إلى ترك المحاسبة ، الذى يؤول به إلى الهلاك ، وصور الهلاك كثيرة ، نسأل الله أن يبصرنا وإياكم بأنفسنا ويرزقنا محاسبتها فمن هذه الصور المهلكة:

١ـ غرق العبد فى هواه:

فيفرح بحاله وينسى الحساب تماماً، حتى يظن أن لا حساب ، فيسير وراء هوى نفسه وعنهم يقول تعالى : ﴿ **إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا** ﴾ (النبأ :٢٧) .

والحل فى قول النبى ﷺ :

« أشد من محاسبة الشريك مع شريكه» رواه أبو نعيم فى الحلية.

٢ـ فساد الباطن:

ما فائدة جمال الظاهر، فما أروع كلامه وما أحسن ثيابه وما ألطف سلوكه وما أجمل عطره ، وفى الباطن خراب ، وفى القلب دمار، لأنه ترك محاسبة نفسه ، يقول أهل العلم : (إذا جالست الناس فكن واعظاً لقلبك فالخلق يراقبون ظاهرك والله يراقب باطنك).

٣ـ سهولة مواقعة الذنوب:

﴿ **يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ** ﴾ (الانفطار) ، يقول الحسن البصرى : (لا يليق بالمؤمن إلا أن يعاتب نفسه فيقول لها : ماذا أردت بكلمتى ؟ وماذا أردت بأكلتى؟ أما العاجز فيمضى قدماً لا يحاسب نفسه).

٤ـ صعوبة حساب الأخرة:

(**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا**) هذه حكمة عمر بن الخطاب التى حملتها

الأجيال من سيد من حاسب نفسه ، وهى تتلاقى مع حكمة الحكماء : (الليل والنهار يباعدان من الدنيا و يقربان من الآخرة) فحاسبوا أنفسكم وفى الحكمة : (كل يوم تقرب فيه الشمس ينذرك بنقصان عمرك) فحاسب نفسك قبل يوم الحساب.



٥. محاسبة النفس في القرآن الكريم

١ــ الأمر بالمحاسبة:

وذلك في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (الحشر: ١٨) .

يقول ابن كثير في تفسيره :﴿ ... وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ... ﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وأنظروا ماذا أدخرتم ليوم معادكم.

٢ــ التحذير من ترك المحاسبة:

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ... ﴾ (آل عمران: ٣٠) .

٣ــ مسئولية المحاسبة:

فالمحاســبة مسئولية يوم القيامة حيث يوم العدل ، فالعاقل يعمل لهذا اليوم يقول تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ... ﴾ (الأنبياء:٤٧) .

٤ــ الفلاح في تزكية النفس:

يقول تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ ﴾ الشمس . فالمحاسبة خير وسيلة لتقويم اعوجاج النفس بغرض تزكيتها وأساس المحاسبة مقارنة ما تفعله مع الشرع وأمر الله، والسبيل إلى ذلك مخالفة الهوى ، ويقول تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ النازعات .

٥ــ تقوى النفوس:

فالطريق إلى التقوى يبدأ بمحاسبة النفس فالمؤمن لا ينظر إلى نفسه إلا بين اللوم و المحاسبة و المعاتبة، أما من ينظر إلى نفسه بعين العجب و الكبر و الفخر ، فقد الطريق إلى التقوى يقول تعالى : ﴿ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ النجم / ٣٢ ، وكفى بهذه النظرة لنفسه بعد فقد الطريق إلى التقوى ، ألا يخاف الذنب، ويستصغر المعصية ، وقد قال فقهاء التقوى : (لا تنظر إلى صغر ذنبك ولكن أنظر إلى من عصيت).

٦. المحاسبة والتقوى

في وصية النبي ﷺ لأبي ذر: « يا أبا ذر لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه فيعلم من أين مطعه ومن أين مشربه ومن أين ملبسه أمن حلال أو من حرام ».

يا أبا ذر:

من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من أين أدخله النار .

هذه قصة رجل يجتهد أن يكون من المتقين وبداية الطريق من محاسبة نفسه حساب الشريك الذي فصله النبي ﷺ : بسؤال نفسه من أين ؟ أم حلال أو من حرام ؟ فإن لم يفعل ولم يحاسب نفسه هذه المحاسبة النبوية ولم يبال فإن الله لم يبال أيضا من أين أدخله النار!! فبدلاً من أن يسلك طريق التقوى صار في طريق اللامبالاة التي أوصلته إلى النار!! .

أما الذين سلكوا طريق المحاسبة وحاسبوا أنفسهم فها هم نماذج مشرقة في طريق المتقين وتأملوا كلمات قلوبهم المنيرة :

يقول عمر بن الخطاب:

(من حاسب نفسه في الرخاء قبل الشدة عاد أمره إلى الرضا و الغبطة).

ويقول الحسن البصري:

(إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه وكانت المحاسبة همته)

ويقول أنس بن مالك:

سمعت عمر بن الخطاب يوما وقد خرجت معه حتى دخل حائطا فسمعته يقول وبيني وبينه جدار: وهو في جوف الحائط: أمير المؤمنين بخ ..بخ والله لتتقين الله أو ليعذبنك.

ويقول الحسن البصري:

في قوله الله تعالى : ﴿ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ (القيامة: ٢) .

لا تلقى المسلم إلا ويعاتب نفسه والفاجر يمضي قدما لا يعاتب نفسه.

ويقول مالك بن دينار: رحم الله أمرءا قال لنفسه : ألست صاحبة كذا ألست صاحبة كذا ثم ذمها ثم خطمها (ما تقاد به الإبل).

ويقول ميمون بن مهران:

(إن التقى أشد محاسبة لنفسه من سلطان عاصى ومن شريك شحيح).

(ثم ألزمها كتاب الله وكان لها قائداً)

وكان توبة بن الصمة:

محاسبا لنفسه، فحاسبها يوماً فرأى أن عمره قد بلغ الستين عاماً، فحسب أيامها فإذا هى أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم ، فصرخ وقال: يا ويلتاه! أألقى الله بواحد وعشرين ألف ذنب ! فكيف وفى كل يوم عشرة ألاف ذنب!!

فلما مات فسمعوا من يقول: (يالها من ركضة إلى الفردوس الأعلى)

ويقول ابراهيم التيمى: مثلت نفسى فى الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها ثم مثلت نفس فى النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلالها فقلت لنفسى: (يا نفس أى شئ تريدين؟ فقالت: أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً قلت: فأنت فى الأمنية فاعملى.

ويقول الفضيل بن عياض:

(المؤمن يحاسب نفسه ، ويعلم أن له موقفا بين يدى الله تعالى والمنافق يغفل عن نفيه ، فرحم الله عبداً نظر لنفسه قبل نزول ملك الموت به).



٧. الأسباب العشرة المعينة على محاسبة النفس

١ــ اليوم وغدا.

المعرفة بأنك كلما اجتهدت فى محاسبة نفسك اليوم تستريح غدا من ذلك ، كلما كان الإهمال اليوم اشتد الحساب غدا .

٢ــ ربح الآخرة.

ربح محاسبة النفس ومراقبتها هو السكن بالفردوس وهى أعلى الجنات ، ومنها تفجر أنهار الجنة و النظر إلى وجه الله تعالى .

٣ــ احذر الإهمال.

احذر الإهمال وما يؤول به ترك المحاسبة من الهلاك و الدمار واتباع الهوى ، وكما قيل اتباع الهوى هوان وذل وفقر وخطيئة.

٤ــ صحبة أهل المحاسبة.

صحبة الأخيار الذين يحاسبون أنفسهم ويطلعونك على عيوب نفسك.

٥ــ زيارة الموتى.

ففى زيارتهم عبرة من حرم من المحاسبة فهم الآن لا يستطيعون محاسبة أنفسهم فقد فارقوا الحياة، فهم لا يعودون، أما أنت فما زالت الفرصة أمامك!!

٦ــ مجالس المحاسبة.

حضور مجالس العلم والذكر وتلاوة كتاب الله و الدعاء هى الطريق الوحيد لمحاسبة النفس فانتهز وجودك فيها فهى مجالس المحاسبة الحقيقية وابتعد عن مجالس اللهو و الغفلة لأنها تنسيك محاسبة النفس .

٧ــ الليل ميدان المحاسبة.

حيث القلوب متيقظة والناس نيام والله يدنو من الأرواح ، وتصفو النفوس من النقائص بعيدا عما يشوش محاسبتها وعتابها.

٨ــ حسن الظن بالله.

كلما قوى فى النفس حسن الظن بالله أسأت الظن بها، فإن لها من النقائص ما لله من الكمالات فلا تراها إلا عيوبا ولا تراها كمالاً.

٩ـ الفرائض و المناهى.

إن كان هناك نقص فى الفرائض يتدارك بحضور القلب و المداومة ، وإن كان فى المناهى فيتدارك بالتوبة و الاستغفار.

١٠ـ حركة القلب و الجسد.

اسأل حركة الجوارح ماذا أردت باليدين ، وماذا أردت بالرجلين؟ ماذا أردت باللسان؟ وتدارك غفلة القلب يكون بالذكر والإقبال على الله تعالى.



٨. خطوات محاسبة النفس

النفس من أعظم الأمانات بل هى أعظم من أمانة الأموال و الأولاد ، ولذلك أقسم الله بها فى كتابه ولا يقسم الله إلا لعظيم، فقال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ الشمس / ٧ .

وتضيع هذه الأمانة خسارة كبيرة لمن فرط فيها يوم القيامة يقول تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾الزمر / ٥٦ .

رحم الله الحنيف بن قيس كان يجئ إلى مصباح فيضع أصبعه فيه ثم يقول: (يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ما حملك على ما صنعت يوم كذا).

❖ ولذلك سنجمل محاسبة النفس فى خمس خطوات :

الخطوة الأولى : المشارطة.

وتعنى بمشارطة النفس مثل الشريك مع شريكه، فيضع أمامها شروطه لإرشادها إلى الفلاح والربح، وموعد المشارطة فى أول النهار.

الخطوة الثانية: المراقبة.

ونعنى بها ملاحظة النفس فى حركاتها فمراقبة الطاعات بتوفر الإخلاص والمراقبة عند المعصية بالتوبة منها، ومراقبة فى المباح بأداء الشكر والأدب مع الله تعالى .

الخطوة الثالثة: المحاسبة بعد العمل.

وموعدها فى آخر النهار ، وهى تمثل كشف الحساب اليومى ، كما يفعل التجار مع شركائهم فى نهاية البيع.

الخطوة الرابعة: المعاقبة.

ونعنى بها جبر التقصير، وتصحيح الأخطاء التى ارتكبها ، والعيوب التى أظهرتها بمعاقبتها حتى لا تعود إلى ذلك بعدها.

الخطوة الخامسة: المعاتبة.

ويعنى بها توبيخ النفس ولومها ومعاتبتها على أفعاله حتى ترتدع وتتوقف عن غيها وظلمها وشرودها.

فما علينا بعد هذه الخطوات الواضحة إلا أن نبدأ ولا نتولى لحظة ، فاليوم الذى

يمر لا يعود، و الموت أقرب لأحدنا من أنفسنا ونبضات قلوبنا:

إنا لنفـــرح بالأيام نقطعـــهـــا
وكـــل يـــوم يُـــدنـــي مـــن الأجـــل

وهذا يدعونا لمعرفة درجات المحاسبة حتى نقطعها بأمان.

★★★

٩. درجات المحاسبة

ثلاث درجات للمحاسبةوثلاثة أساليب للتعامل معها:

الدرجة الأولى: لمولاك أم لهواك؟

هذا هو السؤال الأول بإجابته تكون قد قطعت الدرجة الأولى : وهو سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه؟

* هل ما أفعل حظ عاجل من حظوظ الدنيا؟
* هل هو غرض من أغراض الدنيا كحب مدح الناس؟
* هل هو خوف من ذم الناس وذكرهم للعيوب؟
* هل هو استجلاب محبوب عاجل أريده؟
* هل هو دفع مكروه عاجل لا أطلبه؟

أم الباعث والدافع والداعي:

- القيام بحق العبودية.
- وطلب التودد إلى الله.
- وطلب التقرب إلى الله.
- وطلب ابتغاء الوسيلة إلى الله.
- وملخص هذه الدرجة في سؤال واحد

هل الفعل لمولاك

أم لحظك وهواك؟

الخطوة الثانية: مخلص ومتابع أم لا؟

وهذا هو السؤال الثاني : هل ما أقوم به فيه تحقيق الإخلاص وأن العمل لوجه الله تعالى ، وموافق لسنة النبي ﷺ وفيه تحقيق المتابعة للسنة وفعل النبي ﷺ أم لا ؟

الخطوة الثالثة: الصدق.

وفي هذه الخطوة السؤال المطروح إجابته من داخل كيانك وحنايا قلبك في أن تكون صادقاً في المحاسبة **وتعتمد المحاسبة الصادقة على ثلاثة أسس:**

- الاستنارة بنور الحكمة.
- سوء الظن بالنفس.

■ تمييز النعمة من الفتنة.

وأمام هذه الدرجات الثلاثة ، كان للعلماء أساليب فى محاسبة النفس، نحاول التعرف عليها ، لأنها خير معين من خبراء بالنفس وعلاجها ، **ووصف الدواء الناجح لأمراضها:**

الأسلوب الأول: الساعات ثلاث.

قالوا :

١ــ ساعة مضت:

(لا يدرى العبد كيف انقضت فى مشقة أو رفاهية) ولذا فالواجب أن يقف مع نفسه وقفة ، فما مر لا يعود .

٢ــ ساعة راهنة:

يجاهد فيها نفسه ويراقبها ويعاتبها ويحاسبها ، وهذه الساعة نحن فيها فعلام الانتظار ، وهى ساعة المجاهدة و التربية فلماذا نفوتها؟

٣ــ ساعة مستقبلة:

لم تأت بعد لا يدرى العبد أيعيش إليها، أم لا يعيش ، ولا يدرى ما يقضى الله فيها ، مما يحتم عليه الاستعداد لها و التهيئة .

الأسلوب الثانى : المؤمن ابن وقته.

هذا وقتك الذى أنت فيه ، هذه أنفاسك لو نطقت لقالت، أنت فى فرصة الآن ، انتهزها اغتنمها قبل أن ترحل عنك ، ففى كل نفس أقدار من الله جديدة تمضى علينا ، فلماذا لا تكون هذه أخر أنفاسك ؟ لماذا لا تكون هذه اللحظة أخر لحظاتك؟

فليكن لك فى كل وقت غنيمة .

وليكن لك مع كل لحظة فرصة .

وليكن لك مع كل نفس زاد .

وخلاصة هذا الأسلوب بدون تعليق:

(لابد أن تكون على وجه ، لا تكره أن يدركك الموت وأنت على تلك الحال).

الأسلوب الثالث: معرفة قيمة النفس.

بالتأمل فى المحاسبة نجد أنها لا تخرج عن أمرين :

نظر العبد فى حق الله عليه أولاً ...ثم نظره في المقام به كما ينبغى ثانيا، ومن هنا يتعرف على قيمة نفسه ، يقول يونس بن عبيد: (إنى لأجد مئة خصلة من خصال

الخير ما أعلم أن في نفسى منها واحدة).

وكان محمد بن واسع يتبع نفس الأسلوب يقول : (لو كان للذوب ريح ما قدر أحد يجلس إليّ) .

أما جزاء الذين نسوا أنفسهم فظاهر وواضح فقد تناقلت وكالات الأنباء خبر امرأة كانت تمارس الزنا مباشرة على النت ، فجاءها الموت، ورأها الملايين بالصوت والصورة علي مستوى العالم أجمع، وكانت رسالة قوية من الله للبشر للعبرة والدرس.

الأسلوب الرابع : الوقت هو الحياة.

وصاحب هذا الأسلوب هو الإمام ابن القيم يقول: « وقت الإنسان هو عمره فى الحقيقة وهو يمر مر السحاب فما كان لله وبالله فهو حياته وعمره وغير ذلك ليس محسوبا من حياته».

فعمرك الحقيقى وحياتك الحقيقية ، هى تلك اللحظات التى حاسبت فيها نفسك فكانت لله وبالله ومع الله.

يقول الشاعر:

تزود من التقوى فإنك لاتدرى
إن جنّ ليلُ هل تعيش إلى الفجر
فكم من سليم مات من غير علة
وكم من سقيم عاش حيا من الدهر
وكم من فتى يمسى ويصبح آمنا
وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى



١٠. وصفات للمحاسبة

النفس خطرها عظيم : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (يوسف : ٥٣) .

فلابد من أن تستوقفها عند حدها، ولم يتركها خبراء المحاسبة بلا مواجهة ، بل هناك وصفتان رائعتان لمحاسبة النفس وهما :

الوصفة الأولى: ليل ونهار

وهى وصفه يقدمها الإمام العلامة الماوردى، وقد أطلقنا عليها (ليل ونهار) وهى ليست مطلع أغنية شبابية ، ولكنها أخطر مما يتغنى به المغنون، يقول الماوردى: (أن يتصفح الإنسان فى ليله..ما صدر من أفعال نهاره.. فإن كان محموداً أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه.. وإن كان مذموما استدركه.. وانتهى عن مثله فى المستقبل).

فصفحة النهار تشغله طيلة الليل يرى فيها أفعاله ، فما كان منها محموداً حميداً طيباً أمضاه ، ثم وضع برنامجاً لصفحة جديدة ، فيها كل صالح وطيب ويطوى صفحة العمل المذموم إما باستدراكه أو الانتهاء عن فعله والاتيان بمثله مستقبلا.

وإن احتفظ الناس بأجندات لتدوين الماليات أو الذكريات أو المواعيد ، فالأولى هذه الأجندة ، أجندة الليل و النهار، التى يقدمها لنا الإمام الماوردى.

الوصفة الثانية: مالىّ وما علىّ (ماله وما عليه).

وهذه الوصفة يقدمها خبير المحاسبة الإمام ابن القيم، وهى وصفة لايقدر عليها إلا القوى الإرادة ، الغير عابىء بالدنيا وما فيها فيقول : « هى التمييز بين ماله وما عليه (يقصد العبد) فيستصحب ماله ويؤدى ما عليه ، لأنه مسافر سفر من لا يعود».

فشروط أداء هذه الوصفة أن يكون العبد مسافراً سفر من لا يعود ، لا يتعلق قلبه بشئ من الدنيا، تركها ورحل عنها، سلم متعلقاته ولا يعود ، وذلك حق بحقيق هذه الكيفية التى وصفها ابن القيم (يستصحب حاله) فيفعله.



١١. تحذيرات فى محاسبة النفس

١ــ اليأس من العلاج:

هو الذنب الأكبر الذى يقع فيه الإنسان وهو يحاول محاسبة نفسه من أى ذنب ، ومقصوده كذنب: هو اليأس من رحمة الله تعالى ، لذلك شعور الإنسان بأنه نقطة فى الزمان وليس بذنبه آخر الزمان ، فإن ذلك يعطية الأمل ويمنحه الثقة فى التجديد والبدء من الصفر ، ويتجاوز بذلك كل المحن و الأزمات .

٢ــ حسن الظن بالنفس:

ويطلق عليه علماء تربية النفوس: الرضا عن النفس، بمعنى الانسياق وراء رغباتها ، وعدم الاعتياد برغائبها، والانقياد وراء شهواتها ظانا بها خيراً ، فإذا بها تدفعه إلى المهالك!!وما ذلك إلا بحسن الظن بها ، ويظهر ذلك فى كل تصرفات الانسان ، وهذا يحتاج إلى صبر وإرادة قوية.

٣ــ هوى النفس:

بمعنى عدم معرفة أسباب الانسياق وراء النفس ، وبالتالى فإن أصعب الأمراض هو هوى النفس حتى أطلق عليه علماء التربية : الداء العضال ، أى الذى لا علاج له ، وبالتالى تصعب العلاجات لأمراض النفوس الأخرى ، أو التخلص من العيوب : وهوى النفس فى حقيقته تحدى للفطرة و العقل فى الإنسان ، فالظالم يتحدى عقله ويظلم ليتسلح ضد المجهول ، ويتسلط ليتخطى الخوف ولو من أقل الناس، وفى عصرنا أصبح السحر الذى يبرق أمام النفس : (المال و الخلق الذميم و الذهب) ولذلك فالواجب ، أن ينصرف نظر العاقل إلى النظر بقلبه وليس بعينه إلى المغريات و الشهوات، فيراها على حقيقتها فتنة ، ولسان حالها يقول ليل ونهار(إنما نحن فتنة فلا تكفر) ولكن مقابلة هذا الوضوح بالغفلة، يجعل الإنسان بمنأى على معرفة عيوبه، ويتحكم فيه هواه ، ولن ينظر هذه النظرة الحقيقية إلا بمعرفة ذاته أولاً، ومعالجة نفسه ثانيا، وأول بأول ، حتى يقى نفسه من هواها ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ النازعات / ٤٠ : ٤١ .

والطريق إلى ذلك بثلاث درجات:

- صدق النية فى كل عمل.
- محاسبة النفس عن كل خاطر أو قول أو عمل .
- المبادرة بالتوبة عن كل تقصير وذنب ومعصية.

١٢. خمس أفكار عملية لمحاسبة النفس

الفكرة الأولى: فكرة الحوار(المخالطة)

جاء رجل إلى عمر يشكو وهو مشغول فقال له : (أتتركون الخليفة حين يكون فارغا حتى إذا انشغل بأمر المسلمين أتيتموه) .

وضربة بالدرة

فانصرف الرجل حزينا

فتذكر عمر أنه ظلمه فدعا به

وأعطاه الدرة وقال له : (اضربنى كما ضربتك).

فأبى الرجل ، ثم انصرف عمر إلى منزله ثم جلس يقول لنفسه:

يا ابن الخطاب

كنت وضيا فرفعك الله

وضالاً فهداك الله

وضعيفا فأعزك الله

وجعلك خليفه فأتى رجل يستعين بك على دفع الظلم فظلمته؟!

ما تقول لربك غدا إذا أتيته ؟

وظل يحاسب نفسه حتى أشفق الناس عليه.

ومرت بنا نماذج ابراهيم التيمى والأحنف بن قيس وتوبة ابن الصمة ، وكلها تندرج تحت هذه الفكرة.

**** ملخص الفكرة :**

حوار مع النفس و مخاطبتها بالحقائق ، وعرض عيوبها ، وتدور حول أمرين : تقصير النفس وكمال الرب وحاجتنا إلى مغفرته.

الفكرة الثانية: فكرة الجنيه

أول الريال أو الدرهم أو الفلس أو الدولار أو اليورو، الفكرة يمكن تنفيذها بأى عملة محلية أو دولية وأصل الفكرة من الإمام أبى حامد الغزالى لقوله: « لو رمى

العبد بكل معصية حجرا فى داره لامتلأت داره فى مدة يسيرة قريبة من عمره، ولكنه يتساهل فى حفظ المعاصى والملكان يحفظان عليه ذلك : ﴿ ... أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ... ﴾ المجادلة / ٦ .

**** ملخص الفكرة :**

صندوق صغير ، يضع فيه عند كل ذنب (جنيه) أو أى عمله متاحة ثم كل شهر يفتحه ويتصدق به.

الفكرة الثالثة : فكرة الآن لحظة بلحظة

المؤمن حينما يودع مرحلة من عمره ويستقبل أخرى ، فهو فى حاجة ماسة لمحاسبة نفسه وتقييم مساره، يقول ابن القيم: (هلاك القلب من إهمال محاسبة النفس ومن موافقتها واتباع هواها) .

فالعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى .

يقول الحسن : (إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت المحاسبة من همه).

تذكر أن نجاتك فى محاسبة النفس ، وأنت تودع ما قبل اللحظة (الآن) وتستقبل لحظة جديدة ، فالآن أنت تعلن عن فوزك بمعاهدة ذاتك بالمحاسبة.

الفكرة الرابعة : فكرة الربح

كان من دعاء النبى ﷺ : « اللهم اجعل الحياة زيادة لى فى كل خير».

وفى البخارى قول النبى ﷺ: « أعذر الله إلى امرئ آخّر أجله حتى بلغ ستين سنة».

قال النووى معناه:« لم يترك عذرا إذ أمهله هذه المدة».

فالعمر أيام وليالى تزيد المتقين خيراً ومسارعة فى الخيرات﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ آل عمران / ١٣٣ .

**** ملخص الفكرة:**

فالمسارعة تعنى المسارعة إلى الجنة، و الحصول على الربح الحقيقى ﴿ .. هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ الصف / ١٠ .

فالربح دافع قوى لمحاسبة النفس.

الفكرة الخامسة: فكرة الحق

يقول تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ (الأحزاب : ٥٨) .

فهى وقفة مع النفس ، لا تتحقق فيها التوبة إلا إذا أرجعت الحق إلى صاحبه، فيمن ظلمته من الناس ، ولذلك فالمحاسبة اليومية تعنى أمرين بهذه الفكرة تصحيح العيوب الداخلية و الانطلاق إلى الناس ترجع إليهم حقهم ، من أى أذى لحق بهم منك ، فالتحذير من الله مؤكد بقوله ﴿ فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾.

** **مختصر الفكرة :**

المحاسبة الايجابية فى الانطلاق إلى المجتمع لمعالجته من المعاملات السيئة.



الموضوع — الفهرس — الصفحة

الموضوع | تابع الفهرس | الصفحة

الموضوع تابع الفهرس الصفحة

الموضوع	تابع الفهرس	الصفحة

الموضوع	تابع الفهرس	الصفحة



الكتاب	الناشر
١ـ الدعوة المؤثرة .	دار التوزيع .
٢ـ القيادة المؤثرة.	دار التوزيع
٣ـ المشاعر المؤثرة .	دار التوزيع
٤ـ فقه النفوس .	دار الدعوة
٥ـ فقه القلوب .	دار ابن الوليد
٦ـ فقه السالكين .	دار التوزيع
٧ـ دليل المسافر.	دار المدائن
٨ـ الجنة والنار رأى العين .	دار الدعوة
٩ـ الغزوات فى ظلال القرآن .	دار الدعوة
١٠ـ العراق إلى أين ؟ .	دار المدائن
١١ـ فلسطين تحت الحصار .	دار المدائن
١٢ـ ورد القلوب شرح ورد الرابطة .	دار التوزيع
١٣ـ الحب روح الحياة الزوجية .	دار أم القرى
١٤ـ حياة القلوب .	دار المدائن
١٥ـ حياة الأرواح .	دار المدائن
١٦ـ أيام وليالى رمضان .	دار المدائن
١٧ـ أمير الشهداء أحمد ياسين .	دار المدائن
١٨ـ الطبيب الشهيد عبد العزيز الرنتيسى .	دار المدائن
١٩ـ تربية النفوس.	دار المدائن
٢٠ـ الزوجان فى مملكة الحياة الزوجية .	دار أم القرى
٢١ـ فقه الحركة فى المجتمع .	دار الدعوة
٢٢ـ كيف تنجح فى الحياة ؟	المدائن ـ الفنار
٢٣ـ الزوج رجل والزوجة امرأة .	المدائن ـ الفنار
٢٤ـ يا حبيبى يا رسول الله .	المدائن ـ لؤلؤة
٢٥ـ حقق حلمك فى الحياة .	دار المدائن
٢٦ـ مجتمع آمن مستقر .	دار الدعوة

الاتصال بالمؤلف : ٠١٢٣٢١٧١٤٥

المدونة : gmady-maktoobblog.com

الاميل : gamalmady@ yahoo. com